

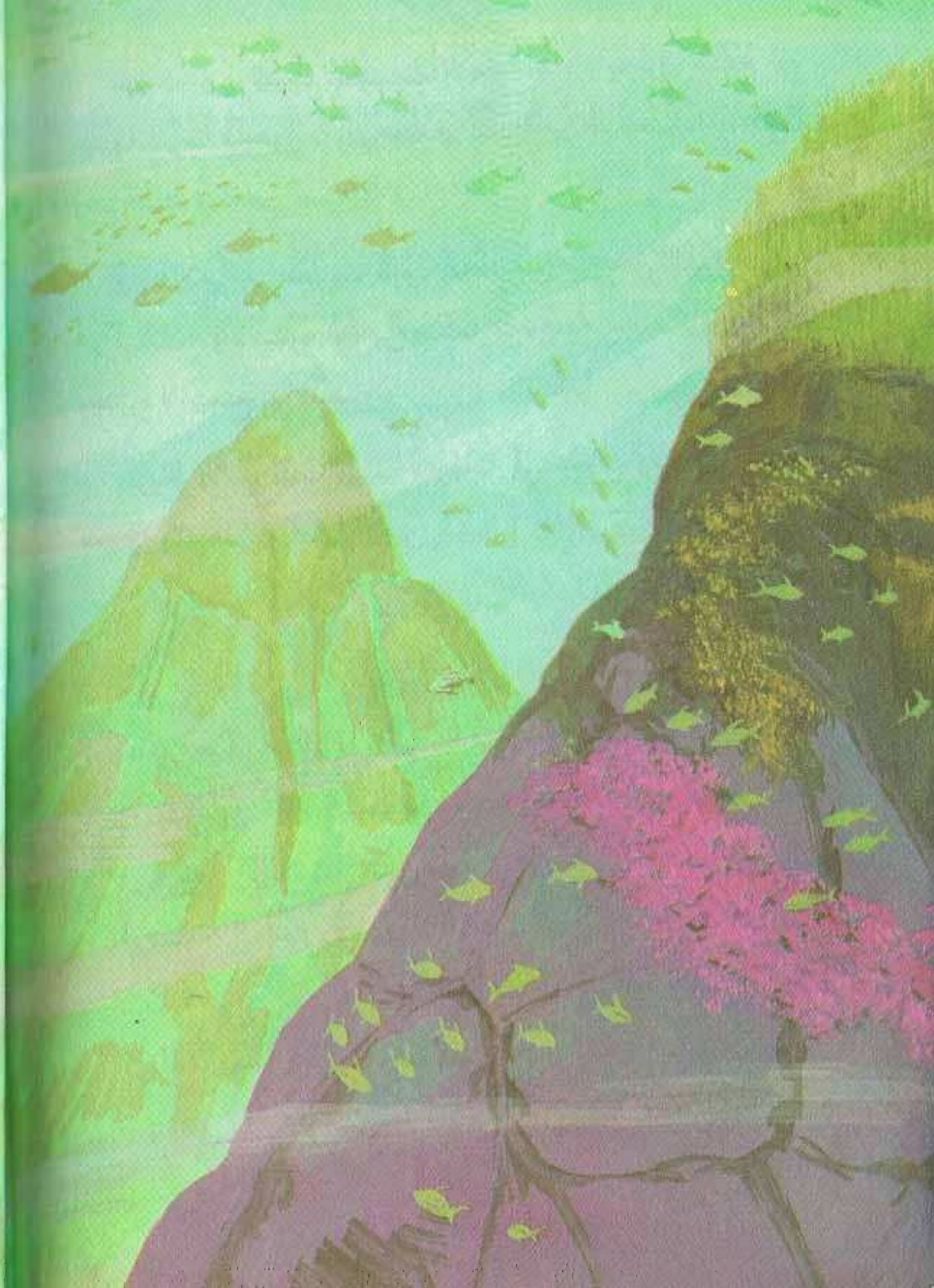
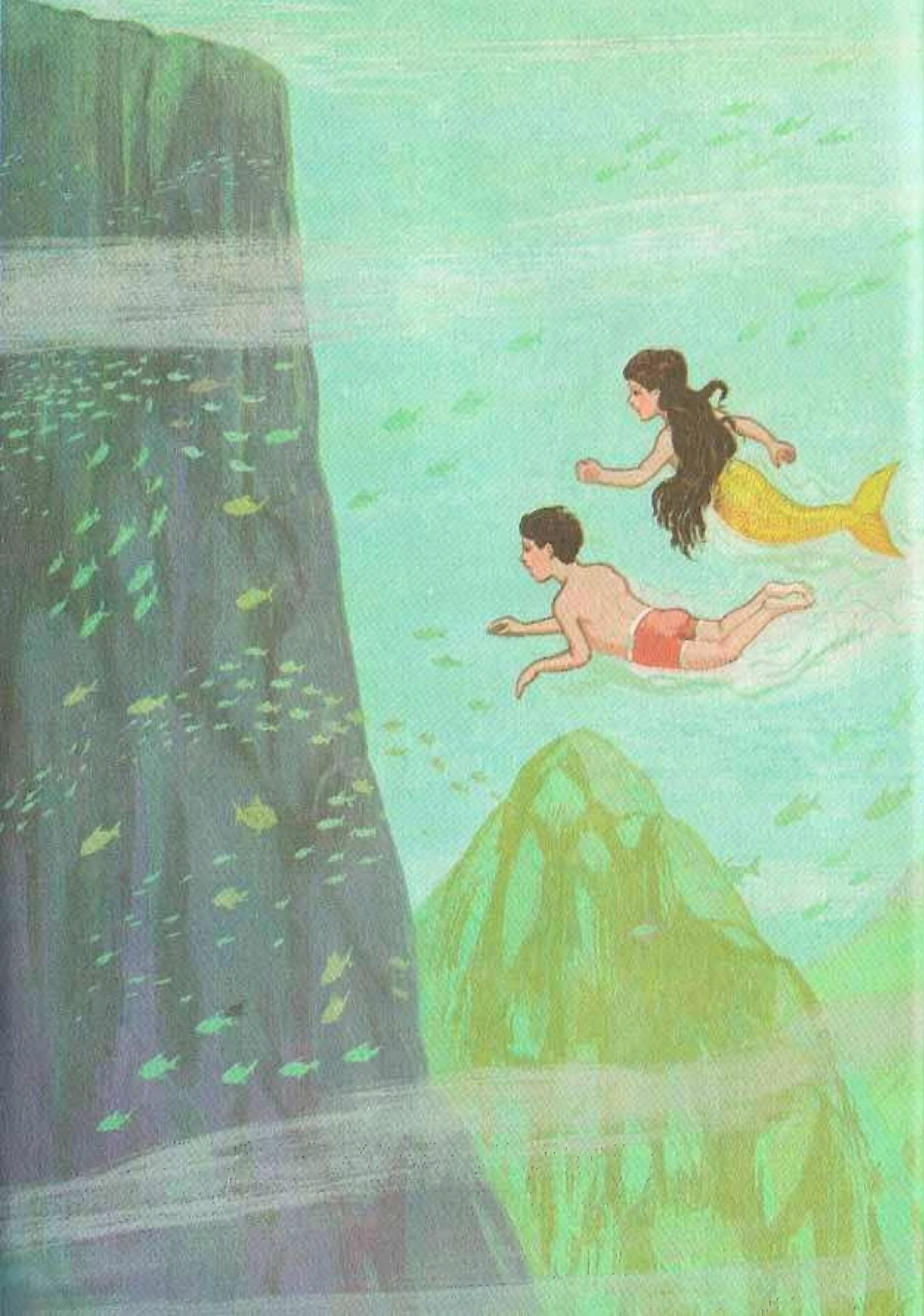
الأميرة المتوحشة

وقصتان أخريان



المغامرات المثيرة





الأميرة المتوحشة

وقصّان أخريان



المغامرات المثيرة



تأليف : مجدي صابر

رسوم : ممدوح الفرماوي

مكتبة لبنات

رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ١٩٩٢

١٠ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأي وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٩٦٧٥ / ١٩٩١

الترقيم الدولي : ٣ - ٠٠٧٥ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

طبع في دار نوبار للطباعة

وَكَانَ يَحْكُمُ مَمْلَكَةَ التَّلَالِ السَّبْعَةَ مَلِكٌ عَادِلٌ سَدِيدُ الرَّأْيِ ^{عَلَى صِدْقِهِ}
يُسَمَّى الْمَلِكُ « زِيدَان » ، وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ جَمِيلَةٌ حَصِيْفَةٌ تُدْعَى
الْمَلِكَةُ « أَسْمَهَان » .

كَمَا كَانَ لِلْمَلِكِ وَزِيرٌ يُدْعَى الْوَزِيرُ « سَعْفَان » ، وَكَانَ وَزِيرًا
مَآكِرًا ، مَلَامِحُهُ خَبِيثَةٌ . وَتَسْتَطِيعُ مِنْ خِلَالِ الْمَلَامِحِ أَنْ تَخْتَرِقَ
السُّطْحَ وَتَقْرَأَ الْأَعْمَاقَ ، فَلَسْتَ مُحْتَاجًا لِلْإِقَامَةِ فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ
طَوِيلًا حَتَّى تَعْرِفَ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ مَلَامِحُهُ تَشِي بِأَنَّهُ لَيْسَ مَآكِرًا
فَحَسْبُ ، بَلْ خَبِيثًا خَبَائِثَ كَرِيهَةً ، وَقَلْبُهُ مَلِيءٌ بِالْحَقْدِ الْأَسْوَدِ
وَكِرَاهَةِ الْمَلِكِ زِيدَانِ وَزَوْجَتِهِ الْمَلِكَةِ أَسْمَهَانِ . غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ وَالْمَلِكَةَ
كَانَا يَظُنَّانِ بِهِ الْخَيْرَ وَالْحُبَّ ، فَقَدْ كَانَ الْوَزِيرُ يُخْفِي ضَعْفَتَهُ فِي
قَلْبِهِ ، وَلَا يُظْهِرُ لِلْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ سِوَى كُلِّ الْحُبِّ وَالْوُدِّ .

وَمَضَتْ سَنَوَاتٌ بِمَمْلَكَةِ التَّلَالِ السَّبْعَةِ وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ
يَدُونَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفْوَهَا شَيْءٌ . غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ زِيدَانِ أَصْبَحَ ذَاتَ يَوْمٍ
وَقَدْ اخْتَلَفَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ ؛ إِذْ رَكِبَتْهُ الْهُمُومُ وَالْأَحْزَانُ .
وَلَا حَظَّ الْمَلِكَةُ شُرُودَ زَوْجِهَا الْمَلِكِ وَسَوْءَ حَالِهِ ، فَسَأَلَتْهُ بِرَفْقٍ
وَحُبٍّ : « مَاذَا يَشْغُلُ بَالَ مَوْلَايَ الْمَلِكِ زِيدَانِ ؟ »

رَدَّ الْمَلِكُ كَسِيفًا : « لَا يَشْغُلْنِي سِوَى شَيْءٍ وَاحِدٍ ، هُوَ أَنَّنَا لَمْ
نُنْجِبْ ابْنًا يَرِثُ الْمُلْكَ مِنْ بَعْدِنَا . وَأَخْشَى أَنْ يَأْتِيَ غَاصِبٌ مُتَجَبِّرٌ
لِنَسْوِلَهُ

الأميرة المتوحشة

إِحدى
مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ ، كَانَتْ ثَمَّةٌ مَمْلَكَةٌ تُسَمَّى « مَمْلَكَةُ التَّلَالِ
السَّبْعَةِ » ، وَقَدْ أَطْلِقَ عَلَيْهَا هَذَا الْأِسْمَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَقَعُ فِي حِضْنِ
وَادٍ عَلَيْهَا تِلَالٌ سَبْعَةٌ تُحِيطُهَا مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ بِالْمَنَعَةِ وَالصَّلَابَةِ .
وَكَانَ لِهَذِهِ التَّلَالِ السَّبْعَةِ فَضْلٌ عَظِيمٌ عَلَى الْمَمْلَكَةِ ؛ لِأَنَّهَا حَمَتُهَا
مِنْ شَرِّ هُجُومِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْمَمَالِكِ الْمُجَاوِرَةِ ؛ فَقَدْ كَانَتْ أَشْبَهَ
بِالْقِيْلَاعِ وَالْحُصُونِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ اخْتِرَاقُهَا لِلْوُصُولِ إِلَى مَمْلَكَةِ
التَّلَالِ السَّبْعَةِ ، الْوَاقِعَةِ وَسَطَ الْوَادِي الْعَمِيقِ الْمُتَسَعِّ .

وَيُحْكِي أَيْضًا أَنَّ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ كَانَتْ تَرْفُلُ فِي حُلُلِ النِّعَمِ
وَالْعِزِّ ، لِخَيْرَاتِهَا الْوَفِيرَةِ ، وَأَرْضِهَا الزَّرَاعِيَّةِ الْخَصْبَةِ ، وَأَنْهَارِهَا
الْعَذْبَةِ ؛ فَنَعِمَ شَعْبُهَا بِالسَّعَادَةِ وَالرَّاحَةِ ، وَعَاشَ أَهْلُهَا الْآمِنُونَ فِي
هَنَاءَةٍ مُتَّصِلَةٍ ، وَرَخَاءٍ مُقِيمٍ .

وَيَسْتَوِلِي عَلَى عَرْشِ الْمَمْلَكَةِ بَعْدَ وَفَاتِي ، فَيُحِيلُ رَعْدَ عَيْشِهَا وَأَمَانَ
أَهْلِهَا وَضَمَانَ رِزْقِهَا إِلَى شَقَاءٍ ، وَعَدْلُهَا إِلَى جَوْرِ ، أَوْسَعُهَا إِلَى
عَذَابٍ مُتَّصِلٍ يُذِيقُهُ أَهَالِي الْمَمْلَكَةِ الطَّيِّبِينَ الْبُسْطَاءِ . وَالْأَمْرُ مِنْ
ذَلِكَ أَنْ يَنْقَلِبَ الْعَدْلُ الَّذِي يُعَشِّشُ فِي جَنَابِهَا وَيُمْسِكُ أَرْكَانَهَا
إِلَى ظُلْمٍ .

هَزَتْ الْمَلِكَةُ رَأْسَهَا بِحُزْنٍ ، فَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ نَفْسَهُ يَشْغَلُهَا ، وَهِيَ
تَتَذَكَّرُ شَيْئًا لَا يَجْرِي عَلَيْهِ النَّسِيَانُ ؛ وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ مَرَّتْ سَنَوَاتٌ
وَسَنَوَاتٌ عَلَى زَوَاجِهَا بِالْمَلِكِ زَيْدَانَ وَلَمْ يَرْزُقْهُمَا اللَّهُ ابْنًا يَعْتَلِي
عَرْشَ الْمَمْلَكَةِ مِنْ بَعْدِهِمَا .

تَهَرَّبَ بِهَا
رَبَّتِ الْمَلِكَةُ عَلَى كَتِفِ زَوْجِهَا ؛ مُهَوَّنَةً عَلَيْهِ الْحُزْنَ وَقَالَتْ :
« إِنَّهَا إِرَادَةُ اللَّهِ ، وَفِي إِرَادَةِ اللَّهِ خَيْرٌ النَّاسِ دَائِمًا ؛ فَلْتَنْتَضِرْ إِلَى
وَنُصْلٍ لَهُ ، عَسَى أَنْ يَرْزُقَنَا بِمَا نُحِبُّ وَنَشْتَهِي . »

وَفِي الْحَالِ رَكَعَ الْمَلِكُ زَيْدَانَ وَالْمَلِكَةُ أَسْمَهُانَ وَعَيُونُهُمَا مُبَلَّلَةً
بِالدَّمُوعِ ، وَفِي قُلُوبِهِمَا رَجَاءٌ حَارٌّ ، أَنْ يُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِفَيْضِ
بَرَكَتِهِ وَوَاسِعِ رَحْمَتِهِ ، فَيَرْزُقَهُمَا ابْنًا يَرِثُ الْعَرْشَ بَعْدَ الْمَلِكِ
زَيْدَانَ .

وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ ظَهَرَتْ عَلَامَاتُ الْحَمْلِ عَلَى الْمَلِكَةِ أَسْمَهُانَ ؛

كَبْرًا
فَشَمَلَتْهُمَا سَعَادَةٌ طَائِعَةٌ ، وَأَخَذَ الْمَلِكُ يَرْفَعُ يَدَيْهِ لِلسَّمَاءِ شَاكِرًا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ، وَاسْتَجَابَتْهُ لِدُعَائِهِمَا وَصَلَاتُهُمَا وَحُسْنُ نِيَّتِهِمَا ،
وَأَرَادَتْهُمَا الْإِصْلَاحَ فِي حَيَاتِهِمَا وَمِنْ بَعْدِهِمَا لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

عَلَامَاتُ حَارٍّ وَقَدْ أُولَعَتْ
وَذَاتَ يَوْمٍ حَضَرَتِ الْمَلِكَةُ أَمَارَاتُ الْوَضْعِ ، فَاسْتَدْعَى الْمَلِكُ عَلَى
عَجَلٍ أَمَهَرَ الْأَطِبَّاءَ . وَوَقَفَ الْمَلِكُ زَيْدَانَ خَارِجَ حُجْرَةِ الْوِلَادَةِ
يَذْرَعُ الْأَرْضَ قَلَقًا عَلَى صِحَّةِ زَوْجَتِهِ الْغَالِيَةِ ، وَيَدْعُو اللَّهَ أَنْ تَلِدَ
بِالسَّلَامَةِ .

وَبِجَوَارِهِ وَقَفَ الْوَزِيرُ سَعْفَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يُطْمَئِنِّ الْمَلِكُ وَيَبِثَّ الرَّاحَةَ
فِي قَلْبِهِ ، بَيِّنًا أَنَّ الْوَزِيرَ كَانَ يَغْلِي مِنْ قُوَّةِ الْغَضَبِ وَالْكَرْهِ ، وَيَكَادُ
قَلْبُهُ يَنْفَطِرُ مِنَ الْحَقْدِ ؛ فَقَدْ كَانَ يَطْمَعُ فِي أَنْ يَمُوتَ الْمَلِكُ زَيْدَانَ
يَدُونَ أَنْ يُنْجِبَ طِفْلًا يَرِثُ عَرْشَهُ ، فَيَعْتَلِي هُوَ الْعَرْشَ وَيَصِيرَ مَلِكَ
الْبِلَادِ .

أَمَّا وَقَدْ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ ، وَهَا هُوَ الْمَلِكُ زَيْدَانَ يُوْشِكُ أَنْ يُرْزَقَ
بَابْنٍ ، فَقَدْ ضَاعَتْ أَحْلَامُ الْوَزِيرِ سَعْفَانَ وَتَبَدَّدَتْ مَشَارِيعُهُ وَأَوْهَامُهُ ،
فَعَضَّ عَلَى نَوَاجِذِهِ يَكَادُ يَتَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ .

وَخَرَجَ الطَّيِّبُ مِنْ حُجْرَةِ الْمَلِكَةِ بِوَجْهِ مُشْرِقٍ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ
الْمَلِكُ فِي لَهْفَةٍ ، فَقَالَ لَهُ الطَّيِّبُ : « مُبَارَكٌ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؛ لَقَدْ رَزَقَكَ

اللَّهُ طِفْلَةً جَمِيلَةً ، أَجْمَلَ طِفْلَةً رَأَيْتَهَا فِي حَيَاتِي .

أَرَبَدُ وَجْهَ الْمَلِكِ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ مِنَ الْمَفْاجَأَةِ ، وَأَصَابَهُ الدُّهُولُ وَالْوُجُومُ ؛ فَقَدْ كَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يَهَبَ لَهُ اللَّهُ ابْنًا يَرِثُ الْمُلْكَ بَعْدَهُ ، أَمَا وَقَدْ جَاءَتْ ابْنَةٌ ، فَقَدْ كَانَ مُسْتَحِيلًا أَنْ تَعْتَلِيَ عَرْشَ الْمَمْلَكَةِ ، لِأَنَّ قَانُونَهَا يَنْصُرُ عَلَى أَنَّ مَنْ يَعْتَلِي الْعَرْشَ ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا .

أَمَا الْوَزِيرُ سَعْفَانُ فَشَمِلَتْهُ سَعَادَةٌ بِالْغَةِ أَخْفَاهَا فِي وَقْتِهَا ، وَرَاحَ يُوَاسِي الْمَلِكَ مُتَظَاهِرًا بِالْحُزَنِ .

وَدَخَلَ الْمَلِكُ إِلَى حُجْرَةِ زَوْجَتِهِ ، فَوَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى ابْنَتِهِ ، وَكَانَتْ غَايَةً فِي الرِّقَّةِ وَالْجَمَالِ ، لَهَا شَامَةٌ حَمْرَاءُ عَلَى كَتِفَيْهَا الْيُسْرَى ، فَقَبَّلَهَا فِي رِقَّةٍ وَدَاعَبَهَا فِي حَنَانٍ . وَالتَفَتَ إِلَى زَوْجَتِهِ قَائِلًا : « حَمْدًا لِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ ، يَا زَوْجَتِي الْعَزِيزَةَ . »

فَاضْتُ عَيْنَا الْمَلِكَةِ أَسْمَهُانَ بِالدُّمُوعِ ، وَهِيَ تَقُولُ : « كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ وَهَبْتُ لَكَ طِفْلًا لِنُحَقِّقَ آمَالَنَا . إِنَّ اللَّهَ ، يَا مَوْلَايَ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ، أَوْ يَرْزُقُهُمْ إِنَاثًا وَذُكُورًا ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا . »

قَالَ الْمَلِكُ وَهُوَ يُجَفِّفُ دُمُوعَ زَوْجَتِهِ : « كَيْفَ تُظْهِرِينَ نَدَمًا

عَلَى فِعْلٍ لَا تَمْلِكِينَ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا ؟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي وَهَبَ لِي وَ وَهَبَ لَكَ هَذِهِ الْابْنَةَ ، وَاللَّهُ لَا يَهَبُ عَطِيَّتَهُ لِمَخْلُوقٍ جُزْأً ، فَلَنَشْكُرَهُ وَلَنَرْبُّ هَذِهِ الْابْنَةَ وَنُحْسِنَ تَهْدِيئَهَا وَتَعْلِيمَهَا ، وَسَوْفَ أَسْمِيهَا الْأَمِيرَةَ الْفَاتِنَةَ ، لِأَنِّي لَمْ أَرِ مِثْلَ جَمَالِهَا فِي حَيَاتِي قَطُّ . »

حَمِدَتِ الْمَلِكَةُ أَسْمَهُانَ رَبُّهَا عَلَى أَنَّ رِسَالَةَ الْجَمَالِ هَذِهِ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى شُعُورِ الْمَلِكِ وَاحْسَاسِهِ ، وَعَرَفَ فَضْلَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ فِيهَا . بَلْ إِنَّهُ لَا يَكَادُ يَكْفُ عَنْ مُدَاعَبَتِهَا وَتَقْبِيلِهَا وَالتَّفَرُّغِ بِضَعِ دَقَائِقِ كُلِّ حِينٍ لِحَمْلِهَا وَهَدَاهِئِهَا وَالتَّمْلِي بِفِتْنَتِهَا .

وَمَرَّ عَامَانِ وَالْأَمِيرَةُ تَنْمُو فِي كَنَفِ وَالِدَيْهَا ، وَتَلَاقِي بِالْغِ الْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ ، وَسَعِدَ بِهَا الْمَلِكُ وَالْمَلِكَةُ ، وَتَنَاسَا رَغْبَتُهُمَا فِي إِنْجَابِ ابْنِ آخِرِ يَرِثُ عَرْشَ الْمَمْلَكَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَتَقَنَا أَنَّهَا مُشِئَةُ اللَّهِ وَحِكْمَتُهُ فِي أَنْ يَهَبَ لَهُمَا ابْنَةٌ لَا ابْنًا . وَكَانَ لِلطِّفْلَةِ الصَّغِيرَةِ قِرْدٌ صَغِيرٌ أَحْضَرَهُ أَحَدُ خَدَمِ الْقَصْرِ ، بَعْدَ أَنْ عَثَرَ عَلَيْهِ أَمَامَ الْأَبْوَابِ ، فِي إِحْدَى لَيَالِي الشِّتَاءِ الْبَارِدَةِ ، فَأَعْطَاهُ لِلْأَمِيرَةِ الصَّغِيرَةِ ؛ فَسَعِدَتْ بِهِ الطِّفْلَةُ ، وَصَارَتْ تَلْعَبُ وَتَلْهُو مَعَهُ .

أَمَا الْوَزِيرُ سَعْفَانُ فَكَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ : « إِلَى مَتَى أُنْتَظِرُ مَوْتَ الْمَلِكِ لَأَعْتَلِيَ الْعَرْشَ ؟ إِنَّهُ يَبْدُو فِي أَتَمِّ صِحَّةٍ وَأَحْسَنِ حَالٍ ، وَلَعَلِّي أَمُوتُ قَبْلَهُ لَوْ أُنْتَظَرْتُ مَوْتَهُ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ أُعْجَلَ بِالْفُوزِ بِالْعَرْشِ

وَلَمْ تَمْضِ سِوَى سَاعَاتٍ ، حَتَّى هَجَمَ رِجَالُ الْوَزِيرِ عَلَى الْمَلِكِ
وَالْمَلِكَةِ فِي قَاعَةِ الْعَرْشِ وَهُمَا - كَعَادَتِهِمَا - بِإِلَاحِرَاسٍ ، فَقَبَضُوا
عَلَيْهِمَا ، وَأَقْتَادُوهُمَا إِلَى سِجْنٍ بَعِيدٍ ، يَقَعُ فِي جَبٍّ عَمِيقٍ وَسَطِ
التَّلَالِ ، لَا يَعْرِفُ مَكَانَهُ سِوَى الْوَزِيرِ سَعْفَانَ ، وَلَا يُمَكِّنُ لِإِنْسَانٍ
الْوُصُولَ إِلَيْهِ أَبَدًا .

وَأَعْلَنَ الْوَزِيرُ فِي الْحَالِ تَنْصِيبَ نَفْسِهِ مَلِكًا عَلَى مَمْلَكَةِ التَّلَالِ
السَّبْعَةِ ؛ فَذَهَلِ النَّاسُ ، وَآيَقَنُوا بِالشَّرِّ الْقَادِمِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ
يَسْتَطِيعُوا إِبْدَاءَ أَيِّ اعْتِرَاضٍ ، بَعْدَ أَنْ هَدَّدَ الْوَزِيرُ مَنْ يُعَارِضُونَهُ
بِقَتْلِهِمْ وَبِعَثْرَةِ رُءُوسِهِمْ فَوْقَ التَّلَالِ ، أَوْ تَعْلِيقِ جُثَّتِهِمْ عَلَى جُدُوعِ
النَّخِيلِ .

وَبِذَلِكَ بَاتَ الْوَزِيرُ سَعْفَانُ مَلِكًا عَلَى الْبِلَادِ بَعْدَ أَنْ أَشَاعَ مَوْتَ
الْمَلِكِ زِيدَانَ وَالْمَلِكَةِ أَسْمَهَانَ . وَفِي الْحَالِ أَمَرَ بِفَرْضِ الضَّرَائِبِ
الْبَاهِظَةِ عَلَى النَّاسِ ، وَمُقَاسَمَتِهِمْ مُحَاصِيلَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ ، وَالتَّحْكُمِ
فِي كُلِّ شَأْنِهِمْ . وَشَرَعَ رِجَالُهُ يَنْشُرُونَ الدُّعْرَ وَالرُّعْبَ فِي طُولِ
الْبِلَادِ وَعَرَضُهَا .

وَبَكَى النَّاسُ مَصِيرَ الْمَلِكِ وَزَوْجَتِهِ ، وَتَرَحَّمُوا عَلَى أَيَّامِهِمَا
السَّعِيدَةِ وَحُكْمِهِمَا الْعَادِلِ ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلْوَزِيرِ الْغَاصِبِ لَا يَجْرَءُونَ
عَلَى مُخَالَفَتِهِ أَوْ مُمَانَعَتِهِ ، خَوْفًا مِنْ شِدَّةِ بَطْشِهِ . وَحَتَّى قَرَدُ الْأَمِيرَةِ



قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ الْمَلِكُ فِي إِنْجَابِ طِفْلٍ آخَرَ .

وَكَانَ لِلْوَزِيرِ قَلَّةٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ الْخَوْنَةِ ، أَغْرَاهُمْ بِالْمَالِ وَالْوُعودِ ،
فَاسْرَعَ يُخَطِّطُ مَعَهُمْ لِلْإِسْتِيلَاءِ عَلَى عَرْشِ الْمَمْلَكَةِ ، وَالْقَبْضِ عَلَى
الْمَلِكِ وَزَوْجَتِهِ الْمَلِكَةِ أَسْمَهَانَ .

الصَّغِيرَةَ اخْتَفَى وَهَرَبَ مِنَ الْقَصْرِ ، كَأَنَّهُ يَخْشَى عَلَى حَيَاتِهِ مِنْ شَرِّ
الْوَزِيرِ الْغَادِرِ .

وَجَاءَ أَحَدُ أَعْوَانِ الْوَزِيرِ وَيَدْعِي « حِمْدَان » ، وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ :
« مَوْلَايَ ! لَقَدْ اسْتَبَّ الْأَمْرُ لَنَا ، وَنَلْنَا مَا نَشْتَهِي ، وَلَكِنْ بَقِيَ
شَيْءٌ وَحِيدٌ ، وَهُوَ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنَ الْأَمِيرَةِ الْفَاتِنَةِ ؛ إِذْ أَخْشَى أَنْ
كَبُرَتْ ، أَنْ تُطَالِبَ بِعَرْشِ أَبِيهَا ، وَأَنْ يُنَاصِرَهَا الشَّعْبُ فِي
ذَلِكَ . »

رَدَّ الْوَزِيرُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . كَيْفَ فَاتَنِي ذَلِكَ ؟ يَجِبُ أَنْ تَتَخَلَّصَ
مِنَ الْأَمِيرَةِ الطُّفْلَةِ فِي الْحَالِ . »

قَالَ حِمْدَانُ : « أَتَقْتُلُهَا ، يَا مَوْلَايَ ، فِي إِحْدَى عُرَفِ الْقَصْرِ
السَّرِّيَّةِ وَنُخْفِي أَمْرَ مَصِيرِهَا ؟ »

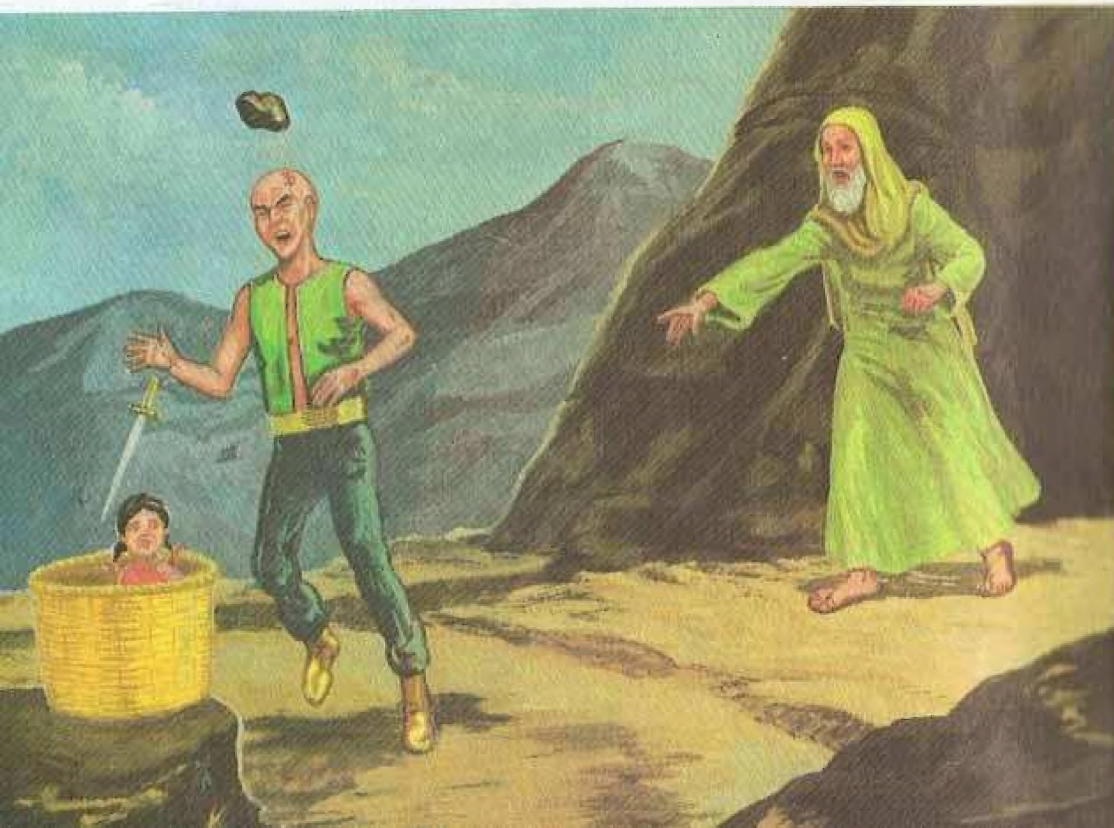
فَكَّرَ الْوَزِيرُ وَقَالَ : « أَخْشَى أَنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ أَنْ يَتَسَرَّبَ الْأَمْرُ إِلَى
الشَّعْبِ ، فَيَثُورَ وَيَحْتَجَّ وَيُسَبِّبَ لَنَا الْقَلَاقِلَ . مِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ تَأْخُذَهَا
بَعِيداً وَتَقْتُلَهَا خَلْفَ التَّلَالِ . »

حَتَّى حِمْدَانُ رَأَسَهُ قَائِلاً : « سَأَفْعَلُ ، يَا مَوْلَايَ ، فِي الْحَالِ . »

وَضَعَ حِمْدَانُ الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ فِي سَلَّةٍ مِنَ الْخُوصِ ، وَاسْرَعَ
يُغَادِرُ بِهَا الْمَمْلَكَةَ وَيَرْتَقِي التَّلَالَ الْبَعِيدَةَ الشَّاهِقَةَ الْارْتِفَاعِ ، حَتَّى
يَمُوتَ .

بَلَغَ أَغْلَاهَا بَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنَ الْعَنَاءِ . ثُمَّ اسْتَلَّ الشَّرِيرُ سَكِينًا حَادَّةً ،
وَقَالَ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِالشَّرِّ : « الْآنَ أَقْتُلُ الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ ، فَيُكَافِئُنِي
مَوْلَايَ الْوَزِيرُ مُكَافَأَةً . »

وَكَانَ ثَمَّةُ صَيَّادٌ عَجُوزٌ يَعِيشُ فِي كُوخٍ أَعْلَى التَّلِّ ، وَاللَّهُمَّ اللَّهُ
أَنْ يُغَادِرَ كُوخَهُ لِيُنْقِذَ الْأَمِيرَةَ الْمُسْكِينَةَ . وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ الصَّيَّادُ
الْعَجُوزُ ، وَشَاهَدَ مَا يَهُمُّ حِمْدَانُ الشَّرِيرُ بِأَنْ يَفْعَلَهُ بِالْأَمِيرَةِ
الْمُسْكِينَةِ ، أَمْسَكَ حَجَرًا كَبِيرًا قَذَفَ بِهِ حِمْدَانُ الشَّرِيرُ فَشَدَخَ رَأْسَهُ ،
وَأَفْقَدَهُ وَعْيَهُ . وَبَعْدَ غَيْبُوبَةٍ كَافِيَةٍ لِنَجَاةِ الْأَمِيرَةِ الْفَاتِنَةِ ، أَفَاقَ
حِمْدَانُ ثُمَّ وَلَّى هَارِباً وَهُوَ يَظُنُّ الْمَتَعَبِدَ شَبَحاً أَوْ جِنِّياً .



وَحَشِيَّ حِمْدَانُ أَنْ يُخْبِرَ الْوَزِيرَ بِمَا حَدَثَ ، فَكَذَبَ عَلَيْهِ وَأَخْبَرَهُ
أَنَّهُ ذَبَحَ الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ فَوْقَ التَّلَالِ ، فَسَعِدَ الْوَزِيرُ أَيَّامًا سَعَادَةً ،
وَوَظَنَ أَنَّهُ قَدْ دَامَ لَهُ الْحَالُ .

* * *

أَمَّا الصَّيَّادُ الْعَجُوزُ فَقَدْ رَاحَ يَرَعَى الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ ، وَيَقْدُمُ لَهَا
الْحَنَانَ وَالطَّعَامَ وَالرَّعَايَةَ ، مِمَّا تَسْتَسِيغُهُ أَعْوَامُهَا الْقَلِيلَةُ ، فَشَبَّتِ
الْأَمِيرَةُ فِي كَنَفِهِ ، وَقَدْ اعْتَادَتِ الْعَيْشَ فِي الْبَرَارِيِّ ، وَاقْتِنَاصَ
الثَّعَالِبِ وَالذَّنَابِ فِي شَجَاعَةٍ .

وَتَقَدَّمَتِ السَّنُ بِالصَّيَّادِ الْعَجُوزِ وَوَهَنَ جَسَدُهُ ، فَبَاتَتِ الْأَمِيرَةُ
تَأْتِي لَهُ بِالطَّعَامِ ، وَتَخْرُجُ لِلصَّيْدِ أَوْ الْقَنْصِ فِي شَجَاعَةٍ ، حَتَّى
صَارَتْ كَأَمْهَرِ الصَّيَّادِينَ وَأَشْجَعَ الْفُرْسَانِ . وَلَمْ يُخْبِرْهَا الصَّيَّادُ قَطُّ
بِحَقِيقَتِهَا أَوْ حَقِيقَةِ مَوْلِدِهَا ، فَظَنَّتِ الْأَمِيرَةُ أَنَّهَا ابْنَةُ ذَلِكَ الصَّيَّادِ
الْعَجُوزِ ، وَلَمْ تَذَرِ بِأَمْرٍ وَالِدَيْهَا الْحَقِيقَيْنِ . وَكَانَ يَشْعُرُ بِبُتُونِهَا
بِقَدْرِ مَا تَشْعُرُ هِيَ بِأُمُومَتِهِ وَأَبُوتِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّتِ الْأَمِيرَةُ الْفَاتِنَةَ سِتَّةَ عَشَرَ رَبِيعًا ، نَمَا جِسْمُهَا
وَأَسْتَطَالَ ، وَظَهَرَتْ قُوَّتُهَا وَاضِحَةً ، وَقَدْ تَجَلَّى جَمَالُهَا بَهِيًّا كَأَبْلَغِ
مَا يَكُونُ ، فَقَدْ حَبَّتْهَا طَبِيعَةُ التَّلَالِ الْمَشْرِقَةِ وَشَمْسُهَا السَّاطِعَةُ

وَهَوَاؤُهَا النَّقِيُّ الصَّحَّةَ وَالْقُوَّةَ ، وَأَشْيَاءُ أُخْرَى يَفْتَقِدُهَا مَنْ يُنْشَوْنَ
دَاخِلَ الْجُدُرَانِ فِي الْقُصُورِ ، بِرَغْمِ رَدَائِهَا الَّذِي صَنَعَتْهُ مِنْ جُلُودِ
الْحَيَوَانَاتِ ، حَتَّى بَدَتْ كَأَنَّهَا فَتَاةٌ وَحْشِيَّةٌ ، لَشِدَّةِ قُوَّتِهَا وَشَجَاعَتِهَا
وَبَأْسِهَا ؛ فَأَحْسَّ الصَّيَّادُ الْعَجُوزُ بِسَعَادَةٍ بِالْغَةِ لِأَنَّهُ أَتَمَّ مُهِمَّتَهُ فِي
الْحِفَاطِ عَلَى حَيَاةِ الْأَمِيرَةِ ، وَتَنْشِئَتِهَا إِلَى أَنْ شَبَّتْ تَعْتَمِدُ عَلَى
نَفْسِهَا .

وَمَاتَ الصَّيَّادُ الْعَجُوزُ ، وَأَحَسَّتِ الْأَمِيرَةُ الْفَاتِنَةُ بِالْوَحْشَةِ فَقَرَّرَتْ
أَنْ تُغَادِرَ التَّلَالَ . وَمَكَّثَتْ فِي تَجْوَالِهَا أَيَّامًا وَهِيَ تَسْعَى فِي
الْأَرْضِ ، فَتَجْتَازُ الْعَوَائِقَ وَالْعَقَبَاتِ ، وَتَعْبُرُ الْأَنْهَارَ وَالْبُحَيْرَاتِ ،
وَتَعِيشُ عَلَى مَا تَطْرَحُهُ الْأَشْجَارُ مِنْ ثِمَارٍ حَوْلَهَا ، أَوْ مَا تَقْتَنِصُهُ مِنْ
أَرَانِبَ بَرِّيَّةٍ . وَكَانَتْ تُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا بِسِكِّينٍ حَادَّةٍ صَنَعَتْهَا مِنْ
الْأَحْجَارِ ، فَتَقْتُلُ كُلَّ مَا يُهَاجِمُهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَوَحُّشَةِ ، الَّتِي
صَارَتْ تَخْشَاهَا وَتَبْتَعدُ عَنْ طَرِيقِهَا . حَتَّى النَّاسُ كَانُوا يَخْشَوْنَهَا
وَيَتَجَنَّبُونَهَا ، وَلَقَبُوهَا بِالْأَمِيرَةِ الْمُتَوَحُّشَةِ ، وَابْتَعدُوا عَنْ طَرِيقِهَا .

وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَتِ الْأَمِيرَةُ تَعْبُرُ مَمَرًا جَبَلِيًّا ضَيِّقًا ، فَخَرَجَتْ إِلَى
مُهَاجَمَتِهَا جَحَافِلُ عَدِيدَةٍ مِنَ الْقُرُودِ الْمُتَوَحُّشَةِ ، وَأَحَاطَتْ بِهَا مِنْ
كُلِّ جَانِبٍ .

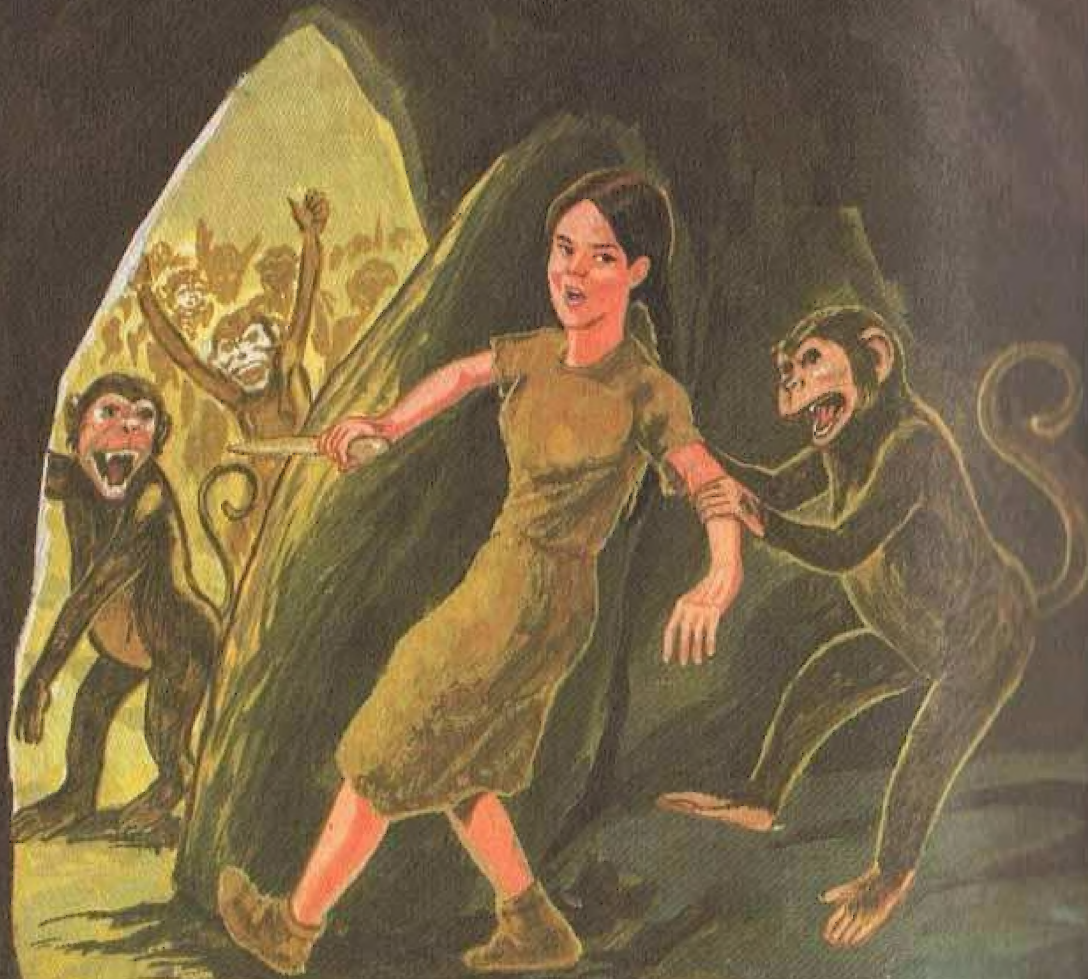
وَدَافَعَتِ الْأَمِيرَةُ عَنْ نَفْسِهَا بِسِكِّينِهَا فِي بَسَالَةٍ ، وَلَكِنَّ الْقُرُودَ
كَانَتْ كَثِيرَةً الْعَدَدِ فَائْتَقَةَ الشَّرَاسَةَ ، وَأَكْثَرَ تَوَحُّشًا ، وَلِهَذَا لَمْ
تَخْشَ سِكِّينَ الْأَمِيرَةِ وَلَمْ تَرْهَبْ شَجَاعَتَهَا .

وَدَارَتْ الْمَعْرَكَةُ ، وَدَافَعَتِ الْأَمِيرَةُ عَنْ نَفْسِهَا بِاسْتِمَاتَةٍ ، وَلَكِنْ
وَضَحَ فِي النَّهَايَةِ أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى صَالِحِهَا ، وَأَنَّهَا سَتَكُونُ
فَرِيسَةً سَهْلَةً لِلْقُرُودِ الْمُتَوَحِّشَةِ . وَكَانَ كُلُّ جَانِبٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
يَتَمَتَّعُ بِمَا لَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْآخَرُ ؛ الْقُرُودُ بِالْكَثْرَةِ الْغَلَابَةِ ، وَالْأَمِيرَةُ
بِالْعَقْلِ الذَّكِيِّ . فَرَاخَتْ تَتَرَاجَعُ وَتَتَرَاجَعُ مُحَاوَلَةً أَنْ تَشُقَّ لِنَفْسِهَا
طَرِيقًا لِلْهَرَبِ وَلَكِنْ بِلَا فَائِدَةٍ ، بَعْدَ أَنْ سَدَّتْ عَلَيْهَا الْقُرُودُ كُلَّ
مَنَافِذِ الْخِلَاصِ .

وَفَجْأَةً انْزَاخَتْ صَخْرَةٌ فِي الْجَبَلِ ، وَظَهَرَ قِرْدٌ ضَخْمٌ ، كَانَ
يُشَاهِدُ مَا يَحْدُثُ مِنْ كَهْفٍ خَلْفَ صَخْرَةٍ بِالْجَبَلِ ، فَاسْرَعَ يَجْذِبُ
الْأَمِيرَةَ مِنْ ذِرَاعِهَا إِلَى دَاخِلِ الْكَهْفِ ، ثُمَّ سَدَّهُ بِالصَّخْرَةِ الْكَبِيرَةِ
مِنْ الدَّاخِلِ ، قَبْلَ أَنْ تَنْدَفِعَ بَقِيَّةُ الْقُرُودِ لِافْتِرَاسِ الْأَمِيرَةِ .

* * *

ارْتَجَفَتِ الْأَمِيرَةُ فَرَقًا مِنْ هَذَا الْقِرْدِ الضَّخْمِ الَّذِي أَنْقَذَهَا مِنْ
بَيْنِ بَرَاثِنِ قَوْمِهِ ، وَظَنَّتُهُ يُرِيدُ افْتِرَاسَهَا وَحْدَهُ ، فَرَفَعَتْ سِكِّينَهَا مُدَافِعَةً



عَنْ نَفْسِهَا ، وَلَكِنَّ الْقِرْدَ الْكَبِيرَ نَظَرَ نَحْوَهَا بِوَدَاعَةٍ وَأَخَذَ يَدُقُّ عَلَى
صَدْرِهِ دَقَاتٍ خَافِتَةً ، كَأَنَّهُ يَقْلُدُّ الْإِنْسَانَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ .
كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُطْمَئِنِّهَا ، وَلَوْ كَانَ لَهُ لِسَانٌ لَنَاطَقَ بِهِ يُطْمَئِنُّهَا وَيُخْبِرُهَا
أَنَّهُ قِرْدُهَا الصَّغِيرُ الَّذِي كَانَ يَعِيشُ مَعَهَا فِي قَصْرِ وَالِدِهَا ، قَبْلَ
اسْتِيلَاءِ الْوَزِيرِ سَعْفَانَ عَلَى عَرْشِ الْبِلَادِ ، وَأَنَّهُ عَادَ لِقَوْمِهِ لِيَعِيشَ
وَسَطَهُمْ . وَعِنْدَمَا شَاهَدَ الْأَمِيرَةَ وَهِيَ تُقَاتِلُ بَنِي جَنْسِهِ أَسْرَعَ
لِنَجْدَتِهَا . وَلَكِنَّ الْقِرْدَ الْمُسْكِينَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْبِرَ الْأَمِيرَةَ بِشَيْءٍ
مِنْ كُلِّ ذَلِكَ . وَحَارَ كَيْفَ يُطْمَئِنُّهَا ؛ فَأَسْرَعَ دَاخِلَ كَهْفِهِ
وَاخْتَفَى لِحِظَةٍ ، ثُمَّ عَادَ وَقَدْ مَلَأَ يَدَيْهِ فَاكِهَةً مُتَنَوِّعَةً مِنْ خَوْخٍ
وَعَنْبٍ وَتَفَاحٍ ، فَأَيَّقَتِ الْأَمِيرَةُ أَنَّهُ صَدِيقٌ لَا عَدُوٌّ ، وَرَبَّتْ عَلَى رَأْسِهِ
شَاكِرَةً . ثُمَّ تَنَاوَلَتْ مَا قَدَّمَهُ لَهَا وَالتَّهَمَّتْهُ بِنَهَمٍ شَدِيدٍ مِنْ قُرْطٍ
إِحْسَاسِهَا بِالْجُوعِ ، بَعْدَ الْقِتَالِ الضَّارِي الَّذِي خَاضَتْهُ مَعَ الْقُرُودِ
الْمُتَوَحِّشَةِ .

وَقَادَهَا الْقِرْدُ الْكَبِيرُ دَاخِلَ الْجَبَلِ ، إِلَى نَاحِيَةٍ أُخْرَى مِنْهُ ،
تُشْرِفُ عَلَى سَهْلٍ مُتَسَعٍ لَا يَحْدُهُ الْبَصَرُ ، وَيَجْرِي خَلْفَهُ نَهْرٌ عَظِيمٌ
وَتُحِيطُ بِهِ غَابَاتٌ شَائِكَةٌ مُلْتَفَّةٌ ، اشْتَجَرَتْ أَغْصَانُهَا فَأَظْلَمَتْ
أَرْضُهَا ، وَلَا يَبِينُ لِلْقُرُودِ الْمُتَوَحِّشَةِ أَيُّ أَثَرٍ بِهِ .

التَفَتَتِ الْأَمِيرَةُ مُمْتَنَةً إِلَى الْقِرْدِ ، وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ السَّهْلِ

الْمُتَسَعِ ، فَوَجَدَتِ الْقِرْدَ الْكَبِيرَ يَتَّبِعُهَا ، وَيَرْفُضُ أَنْ يُفَارِقَهَا ، فَقَالَتْ
لَهُ بِاسْمَةٍ : « يَبْدُو أَنَّكَ تُصِرُّ عَلَى صَحْبَتِي . لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْكَ قَلِيلٌ
أَنَّ الْكَثْرَةَ قُوَّةٌ ، وَالْحَقُّ أَنَّ اثْنَيْنِ خَيْرٌ مِنْ وَاحِدٍ ، وَمِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ
يَكُونَ لِلْإِنْسَانِ رَفِيقٌ وَصَدِيقٌ يُؤَانِسُهُ وَيَسَامِرُهُ ، حَتَّى لَوْ كَانَ قِرْدًا مِنْ
الْقُرُودِ . وَسَوْفَ نَتَلَازِمُ طَوَالَ الطَّرِيقِ . »

سَعَدَ الْقِرْدُ بِكَلِمَاتِ الْأَمِيرَةِ كَأَنَّهُ فَهَمَهَا ، وَرَاحَ يَقْفِزُ فِي مَرَحٍ
وَسَعَادَةٍ ، وَيَقُومُ بِاللَّعَابِ بَهْلَوَانِيَّةٍ ؛ فَضَحِكَتِ الْأَمِيرَةُ بَشُورَةً ، وَقَالَتْ
لَهُ : « سَادَعُوكَ الْقِرْدَ مَرْجَانُ . »

وَسَارَ الْاِثْنَانِ إِلَى قَلْبِ السَّهْلِ الْمُنْبَسِطِ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يَشْعُرُ
بِالسُّرُورِ لِرَفَقَةِ الْآخِرِ ، وَيُطْمَئِنُّ إِلَى حِمَايَتِهِ وَرِعَايَتِهِ .

اسْتَمَرَّتِ الْأَمِيرَةُ وَالْقِرْدُ فِي سَيْرِهِمَا أَيَّامًا وَلَيَالِي عَدِيدَةٍ ، وَكَانَا
يَقْتَاتَانِ مِمَّا يَعَثْرَانِ عَلَيْهِ مِنْ فَاكِهَةٍ ، وَيَشْرَبَانِ مِنْ أَيِّ عَيْنٍ أَوْ نَبْعٍ أَوْ
غَدِيرٍ يُصَادِفُهُمَا . إِلَى أَنْ بَلَغَا الْغَابَةَ الْوَاسِعَةَ لَيْلًا ، فَرَاخَا يَجْتَازَانِ
دُرُوبَهَا وَمَسَالِكَهَا الْمُتَشَعِّبَةَ فِي حَذَرٍ .

وَفَجْأَةً تَنَاهَى إِلَيْهِمَا صَوْتُ زَيْبٍ عَالٍ ، يَبْدُو عَلَى صَاحِبِهِ الْأَلَمُ ،
يَأْتِي عَلَى مَقَرَّةٍ ، فَالْتَفَتَتِ الْأَمِيرَةُ هَامِسَةً إِلَى الْقِرْدِ بِقَوْلِهَا :
« اِنْتَظِرْ يَا مَرْجَانُ ، يَبْدُو أَنَّ ثَمَّةَ وَحْشًا قَرِيبًا مِنَّا ؛ فَلْنَحَازِرْ ! »



وَأَخَذَتْ تَدْنُو فِي حَدَرٍ مِنْ مَصْدَرِ الزَّيْتِ ، فَتَكَشَّفَتْ لَهَا ، عَلَى
ضَوْءِ الْقَمَرِ الْمَتَسَلِّلِ مِنْ بَيْنِ الْأَشْجَارِ الْكثِيفَةِ ، حُفْرَةً وَاسِعَةً
عَمِيقَةً ، وَقَدْ سَقَطَ فِيهَا نَمِرٌ أَرْقَطٌ كَانَ يُحَاوِلُ الْخُرُوجَ مِنْهَا عَبَثًا ،
فَيزَارُ فِي غَضَبٍ وَثَوْرَةٍ زَيْتَرًا مَفْرَعًا كَأَنَّهُ يَسْتَجِيرُ . وَكَانَ ثَمَّةُ ثَلَاثَةٌ
مِنْ صَائِدِي الْوُحُوشِ ، رَاحُوا يَضْرِبُونَ النَّمِرَ بِالْعِصِيِّ الطَّوِيلَةِ
ضُرَبَاتٍ مُوجِعَةٍ ، وَهُمْ بَعِيدُونَ آمِنُونَ مِنْ مَخَالِبِ وَأَنْيَابِ النَّمِرِ ،
وَرَاحُوا يَسْتَعِدُّونَ لِإِلْقَاءِ شَبَاكِهِمْ عَلَى النَّمِرِ الْمُسْكِنِ الْمُتَوَجِّعِ .

صَاحَتِ الْأَمِيرَةُ بِغَضَبٍ ، ثُمَّ شَرَعَتْ تَهَاجِمُ الصَّيَّادِينَ الثَّلَاثَةَ ،
وَمِنْ خَلْفِهَا الْقِرَدُ مَرْجَانٌ ، فَفَزِعَ الصَّيَّادُونَ لِلْهُجُومِ الْمُبَاغِتِ ،
وَأَسْرَعُوا يَفِرُّونَ يَتَتَوْنَ السَّلَامَةَ مِنَ الْأَشْبَاحِ الَّتِي هَبَطَتْ عَلَيْهِمْ فَجَاءَةً
وَأَحَاطَتْ بِهِمْ ، وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْأَشْبَاحُ فِي الْحَقِيقَةِ سِوَى اثْنَيْنِ
مُتَعَاوَتَيْنِ عَلَى الْخَيْرِ ؛ أَحَدُهُمَا قِرَدٌ كَبِيرٌ ، وَالْآخَرُ تِلْكَ الْأَمِيرَةُ
الْحَسَنَاءُ .

وَقَفَتِ الْأَمِيرَةُ تُحَدِّقُ إِلَى النَّمِرِ الْمُسْكِنِ الْوَاقِعِ فِي الشَّرَكِ ،
وَنَظَرَتْ إِلَى الْقِرَدِ مَرْجَانٍ تَسْأَلُهُ عَمَّا يَفْعَلَانِ لِنَجْدَةِ هَذَا النَّمِرِ
الْأَرْقَطِ ، فَاسْرَعَ الْقِرَدُ إِلَى جَذْعِ شَجَرَةٍ كَبِيرٍ ، وَأَلْقَى طَرَفَهُ دَاخِلَ
الْحُفْرَةِ ، لِيَكُونَ سَلَمًا يَصْعَدُ عَلَيْهِ النَّمِرُ إِلَى خَارِجِهَا .

وَفِي الْحَالِ وَثَبَ النَّمِرُ فَوْقَ الْجَذْعِ ، وَتَسَلَّقَهُ صَاعِدًا إِلَى خَارِجِ
الْحُفْرَةِ .

أَشْعُرُ كَأَن قَدْرِي يَقُودُنِي نَحْوَهَا .

وَقَضَى الثَّلَاثَةَ نَهَارًا كَامِلًا فِي سَيْرِهِمْ ، حَتَّى بَاتَتْ أَبْوَابُ الْمَدِينَةِ عَلَى مَسِيرَةِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ . وَأَحْسَتِ الْأَمِيرَةُ بِالتَّعَبِ لِطَوْلِ مَا سَارَتْ ، فَقَالَتْ لِرَفِيقَيْهَا : « لِنَسْتَرِحْ قَلِيلًا ، وَنَحْصُلْ عَلَى قِسْطٍ مِنَ النَّوْمِ قَبْلَ أَنْ نُوَاصِلَ سَيْرَنَا نَحْوَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ . »

وَتَمَدَّدَتْ أَسْفَلَ شَجَرَةٍ وَارِفَةِ الظَّلَالِ ، وَقَدْ وَقَفَ عَلَى حِرَاسَتِهَا النَّمِرُ وَثَّابٌ وَالْقِرْدُ مَرْجَانٌ كَأَشْجَعِ مَا يَكُونُ الْحِرَاسُ .

وَمَا كَادَتْ تَشْرِقُ شَمْسُ الصَّبَاحِ حَتَّى تَعَالَى فِي الْهَوَاءِ صَوْتُ صُرَاخٍ حَادٍّ ، فَتَهَضَّتِ الْأَمِيرَةُ فِرْعَةً ، وَشَاهَدَتْ عَلَى الْبُعْدِ نَسْرًا دَهَبِيًّا يَتَلَقَّى رِيشَهُ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْوَلِيدَةِ الْخَافِتَةِ ، وَقَدْ رَاحَ يَحْلُقُ فِي وَهْنٍ عَلَى غَيْرِ ارْتِفَاعٍ ، وَهُوَ يَتَخَبَّطُ فِي الْهَوَاءِ ، كَأَنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَسْقُطَ ، وَقَدْ انْغَرَزَ فِي سَاقِهِ الْيُمْنَى سَهْمٌ حَادٌّ ، عَلَى حِينِ رَاحَ صَيَّادٌ مِنَ صَيَّادِي النُّسُورِ يُلَاحِظُهُ وَهُوَ يُصَوِّبُ سَهْمًا مِنْ سِهَامِهِ نَحْوَهُ .

هَتَفَتِ الْأَمِيرَةُ فِي النَّمِرِ : « هَيَّا ، يَا وَثَّابُ ، لِنَتَّقِدْ هَذَا النَّسْرَ الدَّهَبِيَّ . »

انْدَفَعَ النَّمِرُ كَالسَّهْمِ نَحْوَ الصَّيَّادِ ، الَّذِي أَوْشَكَ أَنْ يُسَدِّدَ سَهْمًا

الْحُفْرَةَ ، وَزَارَ زَيْبًا عَالِيًا ، فَهَمَّتْ مِنْهُ الْأَمِيرَةُ أَنَّهُ يَعْبُرُ عَنْ سَعَادَتِهِ بِنَجَاتِهِ ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنْهَا وَرَاحَ يَلْعَقُ قَدَمَهَا كَأَنَّهُ يُقَدِّمُ لَهَا شُكْرَهُ وَامْتِنَانَهُ لِإِنْقَادِهَا لَهُ ، فَزَبَّتِ الْأَمِيرَةُ عَلَى رَأْسِهِ بِسُرُورٍ ، وَقَالَتْ لِلْقِرْدِ مَرْجَانِ : « الْآنَ صَارَ لَنَا رَفِيقٌ آخَرٌ ، وَازْدَادَ الْعَدَدُ قُوَّةً وَتَأْثِيرًا وَمَنْعَةً ، وَسَوْفَ نَدْعُوهُ بِالنَّمِرِ « وَثَّابُ » . أَلَسْتَ تَرَى هَذَا الْأَسْمَ مُنَاسِبًا ؟ »

وَشَرَعَتْ فِي السَّيْرِ وَبَرِّقَتْهَا الْقِرْدُ مَرْجَانٌ وَالنَّمِرُ وَثَّابٌ ، لِيَجْتَازُوا بَقِيَّةَ الْغَابَةِ ، فَكَانَتْ كُلُّ الْحَيَوَانَاتِ وَالْوُحُوشِ تَقْرُ مِنْ أَمَامِهِمْ ؛ خَوْفًا مِنَ النَّمِرِ الْأَرْقَطِ الرَّهِيْبِ وَثَّابِ ، وَالْقِرْدِ الْكَبِيرِ مَرْجَانِ ، وَالْأَمِيرَةِ الْأَشَدِّ شَجَاعَةً مِنْهُمَا .

* * *

عَبَرَ الرَّفَاقُ الثَّلَاثَةُ حُدُودَ الْغَابَةِ ، فَانْكَشَفَ لَهُمْ عَلَى الْبُعْدِ وَادٍ خَصِيبٌ ، تَقَعُ بِقَلْبِهِ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ ذَاتُ عِمَارَاتٍ عَالِيَةٍ وَأَبْرَاجٍ سَامِقَةٍ وَمَسَاكِنَ فَاخِرَةٍ ، وَتُحِيطُ بِمَنَازِلِهَا وَبُيُوتِهَا الْحَدَائِقُ الْغَنَاءُ الْوَاسِعَةُ ، وَتُظْهَرُ عَلَيْهَا حُلُلُ النُّعْمَةِ وَمَعَالِمُ الرِّخَاءِ وَالرَّعْدِ ، وَيُحِيطُهَا مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ سُرٌّ عَظِيمٌ الْبُنْيَانِ ، شَاهِقُ الْارْتِفَاعِ ، سَمِيكُ الْجِدَارِ .

وَكَانَتْ الْمَدِينَةُ لَا تَزَالُ عَلَى مَسِيرَةِ نَهَارٍ كَامِلٍ ، فَقَالَتِ الْأَمِيرَةُ لِرَفِيقَيْهَا : « سَوْفَ نَسِيرُ تَجَاهَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ وَنَدْخُلُهَا ، فَإِنِّي

آخَرَ إِلَى النَّسْرِ الذَّهَبِيِّ الْجَرِيحِ ، لِيُصِيبَهُ فِي مَقْتَلٍ ، وَبَقْفَزَةٍ وَاحِدَةٍ
مِنَ النَّمْرِ كَانَ فَوْقَ الصِّيَادِ ، الَّذِي انْكَفَأَ عَلَى الْأَرْضِ مَدْعُورًا ثُمَّ
شَرَعَ يَجْرِي فِي رُغْبٍ هَائِلٍ ، تَارِكًا قُوْسَهُ وَسِهَامَهُ مُلْقَاءَ عَلَى
الْأَرْضِ ، فَأَسْرَعَ الْقِرْدُ مَرَجَانِ بِالتَّقَاطِطِ .

وَسَقَطَ النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ عَلَى الْأَرْضِ خَائِرَ الْقَوَى ، فَهَبَتِ الْأَمِيرَةُ
لِنَجْدَتِهِ ، وَأَدْمَاها مَشْهَدُ السَّهْمِ الْمَغْرُورِ فِي سَاقِهِ ، فَانْتَزَعَتْهُ مِنْ
مَكَانِهِ ، وَضَمَدَتْ جُرْحَ النَّسْرِ وَأَوْقَفَتْ نَزْفَهُ . وَمَا لَبِثَ النَّسْرُ
الذَّهَبِيُّ أَنْ اسْتَعَادَ قُوَّتَهُ بَعْدَ حِينٍ ، فَحَلَقَ فَوْقَ الْأَمِيرَةِ وَرَفِيقَيْهَا
شَاكِرًا ، ثُمَّ انْطَلَقَ فِي الْأَفْقِ وَغَابَ عَنِ الْأَبْصَارِ .

قَالَتِ الْأَمِيرَةُ بِحُزْنٍ : « كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ انْضَمَّ إِلَيْنَا هَذَا النَّسْرُ
الذَّهَبِيُّ ، لِيَصِيرَ رَفِيقَنَا الرَّابِعَ . »

وَشَرَعَتْ تَسِيرُ مَعَ رَفِيقَيْهَا حَتَّى وَصَلُوا قَرِيبًا مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ
الْمَفْتُوحَةِ ، فَهَمَسَتْ إِلَى رَفِيقَيْهَا قَائِلَةً : « فَلْتَخْتَبِيَا يَا مَرَجَانُ وَأَنْتِ
يَا وَثَابُ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ مَرَّا كَمَا سَيَفْرُغُ سُكَّانُ الْمَدِينَةِ ، وَقَدْ يَطْنُونَكُمَا
مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَوَحِّشَةِ أَوْ يَحْسِبُونَكُمَا مِمَّنْ يَقْتَرِسُونَ الْبَشَرَ وَيُرْوَعُونَ
الْأَمْنِينَ ؛ فَيَقْبِضُونَ عَلَيْكُمَا أَوْ يَقْتُلُونَكُمَا ! »

فَأَسْرَعَ النَّمْرُ وَالْقِرْدُ بِالْاخْتِبَاءِ خَلْفَ بَعْضِ الْأَجَامِ ، وَقَدْ أَصْرَا
حَاذِ

عَلَى الصُّمُودِ وَالشَّبَاتِ لِيَكُونَا قَرِيبَيْنِ مِنْ أَمِيرَتِهِمَا ؛ لِنَجِدَتْهَا إِذَا
مَا حَاقَ بِهَا مَكْرُوهٌ .

اتَّجَهَتِ الْأَمِيرَةُ نَحْوَ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ ، فَأَدْهَشَهَا أَنْ وَجَدَتْ سُكَّانَهَا
جَمِيعَهُمْ قَدْ تَجَمَّعُوا أَمَامَ الْأَسْوَارِ ، وَهُمْ يَشْخَصُونَ بِأَبْصَارِهِمْ نَحْوَ
السَّمَاءِ ، يَتَقَدَّمُهُمْ شَيْخٌ جَلِيلٌ طَوِيلُ اللَّحْيَةِ ، فِي رِدَاءٍ أَسْوَدَ طَوِيلٍ ،
وَهُوَ يَشْخَصُ بِبَصَرِهِ ، مِثْلَ بَقِيَّةِ الْوَاقِفِينَ ، نَحْوَ السَّمَاءِ ؛ فَدَهِشَتْ
الْأَمِيرَةُ وَسَأَلَتْ أَحَدَ الْوَاقِفِينَ : « مَا هَذَا الَّذِي يَفْعَلُهُ سُكَّانُ الْمَدِينَةِ ؟
وَلِمَاذَا يَشْخَصُونَ بِأَبْصَارِهِمْ نَحْوَ السَّمَاءِ ؟ »

رَدَّ الرَّجُلُ : « الْيَوْمَ يَتِمُّ اخْتِيَارُ حَاكِمِ مَدِينَتِنَا الْجَدِيدِ لِخَمْسَةِ
أَعْوَامٍ قَادِمَةٍ . وَكُلُّ مَنْ هَؤُلَاءِ الْوَاقِفِينَ وَأَنَا مَعَهُمْ نَنْتَظِرُ ؛ لَعَلَّ
أَحَدَنَا يَكُونُ هُوَ الْحَاكِمَ الْقَادِمَ لِمَدِينَتِنَا السَّعِيدَةِ . »

عَجِبَتِ الْأَمِيرَةُ وَهِيَ وَسَطُ الْوَاقِفِينَ . وَفَجْأَةً تَعَالَى صِيَاحٌ ، وَأَشَارَ
الْوَاقِفُونَ نَحْوَ السَّمَاءِ فِي إِثَارَةٍ وَلَهْفَةٍ ، فَتَطَلَّعَتِ الْأَمِيرَةُ حَيْثُ
أَشَارُوا ، فَشَاهَدَتْ نُقْطَةً ذَهَبِيَّةً رَاحَتْ تَقْتَرِبُ وَتَقْتَرِبُ وَهِيَ تَتَضَحُّ
وَتَبِينُ مَعَالِمَهَا ، وَمَيَّزَتِ الْأَمِيرَةُ مَلَامِحَهَا تَمَامًا ، فَإِذَا بِهَا النَّسْرُ
الذَّهَبِيُّ الَّذِي أَنْقَذَتْهُ مِنْ سِهَامِ الصِّيَادِ ، وَمَا لَبِثَ النَّسْرُ أَنْ رَاحَ يَدْنُو
وَيَدْنُو ، فَازْدَادَ صِيَاحٌ وَهْتَاغُ الْوَاقِفِينَ . وَعِنْدَمَا حَلَقَ النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ
فَوْقَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ خَيَّمَ عَلَيْهَا صَمْتٌ مُطْبِقٌ ، وَتَطَلَّعَ الْوَاقِفُونَ نَحْوَ

وَسَقَّ طَرِيقَهُ نَحْوَ الْأَمِيرَةِ حَتَّى بَلَغَ مَكَانَهَا ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهَا ،
وَقَالَ بِوَجْهِ مُتَهَلِّلٍ : « لَقَدْ صِرْتُ مِنْذُ الْآنَ حَاكِمَةَ الْبِلَادِ ،
يَا ابْنَتِي . »

دَهَشَتِ الْأَمِيرَةُ الْفَائِزَةُ ، وَتَطَلَّعَتْ إِلَى الشَّيْخِ الْجَلِيلِ مُتَسَائِلَةً :
« مَاذَا تَقُولُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْكَرِيمُ ؟ »

رَدَّ الشَّيْخُ : « لَقَدْ اخْتَارَكَ نَسْرُنَا الدَّهَبِيُّ مَلِكَةً عَلَى الْبِلَادِ ؛
فَكُلُّ خَمْسَةِ أَعوَامٍ يَعْتَلِي عَرْشَ بِلَادِنَا أَحَدُ السُّكَّانِ ، فَيَصِيرُ مَلِكًا
عَلَيْهَا ، وَيَكُونُ اخْتِيَارُ الْحَاكِمِ بِوَسَاطَةِ النَّسْرِ الدَّهَبِيِّ ، فَيَتَجَمَّعُ
النَّاسُ - كَمَا رَأَيْتَ - أَمَامَ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ ، وَيُحْلِقُ النَّسْرُ بَعِيدًا عِدَّةَ
أَيَّامٍ فِي الْبَرَارِيِّ وَالسُّهُولِ وَالْغَابَاتِ ، ثُمَّ يَعُودُ لِيَحُطَّ فَوْقَ كَتِفِ مَنْ
يَخْتَارُهُ ، لِيَكُونَ الْحَاكِمَ الْجَدِيدَ . وَلَقَدْ اخْتَارَكَ النَّسْرُ الدَّهَبِيُّ
بِبَصِيرَتِهِ النَّافِذَةِ وَالْهَامَةِ الْفِطْرِيَّ ، فَصِرْتُ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا مَلِكَةً
الْبِلَادِ . »

تَعَجَّبَتِ الْأَمِيرَةُ بِشِدَّةٍ وَهِيَ لَا تَكَادُ تُصَدِّقُ مَا تَسْمَعُ ، عَلَى حِينِ
نَظَرِ إِلَيْهَا النَّسْرُ الدَّهَبِيُّ بِأَمْتِنَانٍ ، فَزَبَنَتِ الْأَمِيرَةُ عَلَى رِيشِهِ الدَّهَبِيِّ
قَائِلَةً : « أَيُّهَا النَّسْرُ الْكَرِيمُ ، مَا أَرُوْعَ وَأَسْرَعَ مَا رَدَدْتَ الْجَمِيلَ ! »

وَتَمَّ تَنْصِيبُ الْأَمِيرَةِ مَلِكَةً عَلَى الْبِلَادِ ، فِي احْتِفَالٍ مَهِيبٍ ،



النَّسْرُ بَعِیُونَ اتَّسَعَتْ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَظَلُّوا يُحْمَلِقُونَ شَاخِصَةً
أَبْصَارَهُمْ مِنْ فَرْطِ انْفِعَالِهِمْ ، كَأَنَّ النَّسْرَ سَيَّأَتْهُمْ بِأَمْرِ خَارِقٍ .

دَارَ النَّسْرُ دَوْرَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فِي الْهَوَاءِ وَهُوَ يُحَدِّقُ فِي الْوَاقِفِينَ ، ثُمَّ
شَرَعَ يَهْطُ بِسُرْعَةٍ ، وَعِیُونَ الْوَاقِفِينَ تُتَابِعُهُ فِي لَهْفَةٍ ، فَاسْتَقَرَّ فَوْقَ
كَتِفِ الْأَمِيرَةِ ، وَهُوَ يُطْلِقُ صَيِّحَاتٍ مَدَوِيَّةً تَعْبِيرًا عَنْ الْارْتِيَاحِ
وَالِابْتِهَاجِ ، فَزَبَنَتْ عَلَيْهِ الْأَمِيرَةُ ، وَهِيَ تَسْأَلُهُ بِسُرُورٍ : « كَيْفَ
حَالُكَ أَيُّهَا النَّسْرُ الدَّهَبِيُّ ؟ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ غَادَرْتَنِي إِلَى الْأَبَدِ . »

وَهُنَا تَعَالَى الصَّبَاحُ مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى كَادَ يُصِمُّ الْأَذَانُ ، وَاقْتَرَبَ
الشَّيْخُ الْجَلِيلُ ذُو اللَّحْيَةِ الْبَيْضَاءِ وَالرُّدَاءِ الْأَسْوَدِ وَالْوَجْهِ الْمَشْرِقِ ،

كَمَا تَمْ تَسْلِيمُهَا مَقَالِيدَ الْأُمُور ، فَرَاخَتْ تَحْكُمُ وَتَأْمُرُ بِالْقَوْلِ
وَالْحِكْمَةِ ، كَمَا لَوْ كَانَتْ قَدْ انْتَقَلَتْ إِلَيْهَا هَذِهِ الْمَكَارِمُ عَنْ أَبِيهَا
وِرَاثَةً ، دُونَ تَرْبِيَةٍ وَلَا تَدْرِيبٍ وَلَا إِقْنَاعٍ ، وَيُسَاعِدُهَا فِي ذَلِكَ
مُسْتَشَارُهَا الشَّيْخُ الْحَكِيمُ الَّذِي كَانَتْ مُهِمَّتُهُ مُسَاعَدَةُ كُلِّ حَاكِمٍ
جَدِيدٍ عَلَى التَّعَرُّفِ بِشُؤْنِ الْبِلَادِ ، فِي الْفَتْرَةِ الْأُولَى مِنْ حُكْمِهِ .

أَمَّا الْقِرْدُ مَرْجَانُ وَالنَّمِرُ وَثَابَ فَقَدْ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمَا الْأَمِيرَةُ النَّسْرُ
الذَّهَبِيُّ فَاصْطَحَبَهُمَا إِلَى دَاخِلِ الْمَدِينَةِ ، حَيْثُ أَقَامَا فِي حَدَائِقِ
الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ بِدُونِ أَنْ يَخْشَاهُمَا إِنْسَانٌ . وَصَارَتِ الْأَمِيرَةُ إِذَا مَا
جَلَسَتْ فِي مَوْكِهَا الْمُؤَلَّفِ مِنْ سِتِّ عَرَبَاتٍ ذَهَبِيَّةٍ ، يَجْرُ كَلًّا مِنْهَا
ثَمَانِيَةُ خِيُولٍ مُطَهَّمَةٍ ، أَنْ تُجْلِسَ الْقِرْدُ وَالنَّمِرُ خَلْفَهَا ، وَيَحْطُ النَّسْرُ
الذَّهَبِيُّ فَوْقَ كَتِفِهَا .

وَذَاتَ يَوْمٍ وَالْأَمِيرَةُ عَائِدَةٌ مِنْ جَوْلَةٍ لَهَا لِتَفْقِدَ أَحْوَالِ الرُّعْيَةِ ،
وَالشَّيْخُ الْحَكِيمُ بِصُحْبَتِهَا ؛ إِذْ اشْتَبَكَ ثَوْبُهَا بِفَرْعِ شَجَرَةٍ فَتَمَزَّقَ
الرِّدَاءُ عِنْدَ مَوْضِعِ الْكَتِفِ مِنْهَا ، وَأُنْكَشَفَتْ شَامَةُ الْأَمِيرَةِ الْحَمْرَاءُ .
وَمَا إِنَّ رَأَاهَا الشَّيْخُ الْحَكِيمُ حَتَّى ثَارَتْ دَهْشَتُهُ وَتَعَاظَمَتْ ، وَصَارَ
يَسْأَلُ نَفْسَهُ عَنْ تِلْكَ الشَّامَةِ وَصَاحِبَتِهَا ، وَأَخَذَ يَسْتَنْطِقُ ذَاكِرَتَهُ بِمَا
خُطَّ فِيهَا ، وَأَخَذَ يَرْبِطُ بَيْنَ قِصَّةِ تِلْكَ الشَّامَةِ وَالْأَمِيرَةِ الْفَاتِنَةِ . ثُمَّ
سَأَلَ الْأَمِيرَةَ عَنْ قِصَّةِ حَيَاتِهَا ، فَأَخْبَرَتْهُ بِنُشُوءِهَا فَوْقَ رَوَابِي مَمْلَكَةِ

التَّلَالِ السَّبْعَةِ ، كَمَا أَخْبَرَتْهُ عَنْ وَالِدِهَا الصَّيَّادِ الْعَجُوزِ .

هَتَفَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « يَبْدُو أَنَّ عِرْفَتَكَ ، أَقْصَدُ
أَنِّي عِرْفَتَكَ ، أَنْتِ الْأَمِيرَةُ الْفَاتِنَةُ ابْنَةُ الْمَلِكِ زَيْدَانَ وَالْمَلِكَةِ
أَسْمَهَانَ . »

وَشَرَعَ يَقْصُ عَلَى الْأَمِيرَةِ مَا مَرَّ بِوَالِدِهَا مِنْ أَحْدَاثٍ ، عِنْدَمَا
كَانَتْ طِفْلَةً صَغِيرَةً لَا تَعِي شَيْئًا . وَكَيْفَ قَامَ الْوَزِيرُ سَعْفَانُ بِالتَّأْمُرِ
عَلَى وَالِدِهَا وَيَالْقَائِهِمَا فِي جُبٍّ ، لَا يَصِلُهُ إِنْسَانٌ ، عَلَى التَّلَالِ ،
وَادَّعَى مَوْتَهُمَا لِيُغْتَصِبَ عَرْشَ الْبِلَادِ . وَكَيْفَ قَامَ بِإِرْسَالِ الْأَمِيرَةِ
الصَّغِيرَةِ إِلَى التَّلَالِ لِيَذْبَحَهَا أَحَدُ أَعْوَانِهِ الْأَشْرَارِ ، وَكَيْفَ أَنْقَذَهَا
الصَّيَّادُ الْعَجُوزُ وَكَفَّلَهَا ، إِلَى أَنْ مَاتَ بِدُونِ أَنْ يُخْبِرَهَا بِحَقِيقَةِ
أَمْرِهَا .

دَهَشَتِ الْأَمِيرَةُ وَتَعَاظَمَتْ دَهْشَتُهَا وَسَأَلَتْ تَسْتَفْسِرُ الشَّيْخَ
الْحَكِيمَ : « وَلَكِنْ كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّ بِكُلِّ هَذِهِ الْأُمُور ؟ »

إِزْدَادَ نَبْشُ الشَّيْخِ فِي ذَاكِرَتِهِ لِتَذَكُّرِ هَذَا الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ مِنْ آبَائِهِ
الطُّوَالِ ؛ فَسَأَلَتْ دُمُوعَهُ .

كَفَكَفَ الشَّيْخُ دُمُوعَهُ وَهُوَ يَقُولُ : « لَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُ
مُسْتَشَارًا فِي بَلَاطِ وَالِدِكَ الْمَلِكِ زَيْدَانَ ، وَبَعْدَ أَنْ جَرَى مَا جَرَى ،

وَأَسْتَوِلَى الْوَزِيرُ سَعْفَانَ عَلَى الْحُكْمِ ، عَزَمَ عَلَى قَتْلِ كُلِّ رَجُلٍ
وَالِدِكَ الْمَلِكِ وَمُسَاعِدِيهِ ، فَهَرَبْتُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، ثُمَّ اخْتَارَنِي
النَّاسُ لَأَكُونَ مُرْشِدَ مُلُوكِهِمْ فِي بَدَايَةِ حُكْمِهِمْ ؛ لِسَدَادِ رَأْيِي
وَطَوْلِ خِبْرَتِي وَحَسَنِ صُحْبَتِي لَوَالِدَيْكَ ، وَفَادَتِي وَتَعَلُّمِي مِنْهُمَا
الكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ .

تَأَلَّقَتْ عَيْنَا الْأَمِيرَةِ ، وَقَالَتْ : « إِذَا فَأَنَا ابْنَةُ الْمَلِكِ زِيدَانَ ، الَّذِي
اعْتَصَبَ الْوَزِيرُ الْمُجْرِمُ سَعْفَانَ عَرْشَهُ ، وَسَجَنَهُ مَعَ وَالِدَتِي الْمَلِكَةِ ، وَأَنَا
هُنَا لَا أَدْرِي عَنْ مَصِيرِهِمَا شَيْئًا . »

وَهَبَتْ وَاقِفَةً وَهِيَ تَفُورُ بِغَضَبٍ عَارِمٍ قَائِلَةً : « سَوْفَ أَذْهَبُ
لِإِنْقَازِ وَالِدَيَّ فِي الْحَالِ . »

اعْتَرَضَ الشَّيْخُ الْحَكِيمُ قَائِلًا : « وَلَكِنَّكَ ضَعِيفَةٌ وَحَدُوكِ يَا ابْنَتِي ،
وَلَيْسَ لَكَ مِنْ جَيْشٍ يُوَاجِهُ جُيُوشَ الْوَزِيرِ سَعْفَانَ . »

قَالَتِ الْأَمِيرَةُ بِإِصْرَارٍ : « سَوْفَ أَحَارِبُهُ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ ، فَإِنَّ
الْحَقَّ لَا تَغْلِبُهُ أَيُّ قُوَّةٍ مَهْمَا تَعَاظَمَتْ ، فِيمَا أَنْ أُعِيدَ وَالِدَيَّ إِلَى
عَرْشِ مَمْلَكَةِ التَّلَالِ السَّبْعَةِ ، وَأَعَاقِبَ الْوَزِيرَ الشَّرِيرَ ، وَإِنَّمَا أَنْ أَمُوتَ
شَهِيدَةً فِي طَلَبِ الْوَاجِبِ . وَلَكِنْ أَسْتَحَاجُ إِلَى جَيْشٍ جَرَّارٍ أَوْ قُوَّةٍ
وَعَتَادٍ ، يَكْفِينِي أَصْدِقَائِي الثَّلَاثَةُ : الْقِرْدُ مَرْجَانُ وَالنَّمِرُ وَثَّابُ وَالنَّسْرُ

الدَّهْبِيُّ ، فَضْلًا عَنِ الصَّدِيقِ الَّذِي لَا يَغِيبُ وَلَا يُرَى . »

ظَنَّ الشَّيْخُ أَنَّهُ قَدْ مَسَّهَا شَيْءٌ مِنْ هَوْلِ الْمَفْجَأَةِ ، فَسَأَلَهَا :
« مِنْ ذَلِكَ الصَّدِيقِ الَّذِي لَا يَغِيبُ وَلَا يُرَى ؟ »

قَالَتْ : « هُوَ التُّجَارِبُ ، يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ الْجَلِيلَ . التُّجَارِبُ
وَالْخَبِرَاتُ ، وَدُرُوسُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالتَّلَالُ وَالْقِفَارُ ، وَالطُّيُورُ
وَالْوُحُوشُ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِنَ الصَّفَحَاتِ فِي كِتَابِ الْكُؤُنِ
الْعَجِيبِ . »

نَدِيتُ لِحِيَّةَ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ بِدُمُوعِهِ الْغَزَارِ ، وَهُوَ يَقُولُ : « بَارَكَ
اللَّهُ فِيكَ يَا ابْنَتِي . إِنَّ الْمَلِكَ زِيدَانَ لَنْ يَنْدِمَ أَبَدًا عَلَى أَنَّ اللَّهَ
وَهَبَ لَهُ ابْنَةً ، هِيَ مِثَالُ الشَّجَاعَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْفِدَاءِ . وَسَوْفَ أَصْحَبُكَ
فِي رَحْلَتِكَ إِلَى مَمْلَكَةِ التَّلَالِ السَّبْعَةِ ؛ فَلَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَتَأَخَّرَ عَنْ
تَقْدِيمِ يَدِ الْعَوْنِ لِلْمَلِكِ زِيدَانَ . »

« وَلَكِنْ يَجِبُ أَوَّلًا وَقَبْلَ رَحِيلِنَا أَنْ نَخْتَارَ مَلِكًا آخَرَ يَحِلُّ مَحَلَّكَ
عَلَى الْبِلَادِ ، وَسَوْفَ اخْتَارُهُ بِنَفْسِي هَذِهِ الْمَرَّةَ . »

وَاتَّقَى الشَّيْخُ الْحَكِيمُ أَحَدَ أَخْلَصِ أَعْوَانِهِ ، وَأَصُوبِهِمْ رَأْيًا ،
وَعَيْنَهُ حَاكِمًا عَلَى الْبِلَادِ ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ وَالْأَمِيرَةُ الْفَاتِنَةُ وَرَفَاقُهَا الثَّلَاثَةُ
مِنَ الطُّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، ذَاهِبُونَ إِلَى مَهْمَةٍ عَاجِلَةٍ لَا تَحْتَمِلُ تَأْخِيلًا ؛

فَخَرَجَ الشَّعْبُ كُلُّهُ لِدَوَاعِهِمْ وَتَحِيَّتِهِمْ .

سَارَ الشَّيْخُ الْحَكِيمُ وَالْأَمِيرَةُ الَّتِي ارْتَدَتْ مَلَاسَ الْقِتَالِ ، يَتَّبَعُهُمَا الْقِرْدُ مَرْجَانٌ وَالنَّمِرُ وَثَابٌ ، وَطَارَ النَّسْرُ الذَّهَبِيُّ فَوْقَهُمْ ، فِي اتِّجَاهِ مَدِينَةِ التَّلَالِ السَّبْعَةِ .

انْقَضَتْ أَيَّامٌ طَوَالَ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا جَمِيعًا إِلَى مَشَارِفِ مَدِينَةِ التَّلَالِ السَّبْعَةِ . وَقَالَتِ الْأَمِيرَةُ لِلشَّيْخِ الْحَكِيمِ : « إِذْهَبْ إِلَى الْوَزِيرِ سَعْفَانَ فَأَخْبِرْهُ أَنَّ الْأَمِيرَةَ الْفَاتِنَةَ ابْنَةَ الْمَلِكِ زَيْدَانَ وَالْمَلِكَةَ أَسْمَهَانَ ، قَدْ جَاءَتْ تَطَالِبُ بَعْرَشٍ وَالِدِهَا وَالْإِفْرَاجِ عَنْهُمَا ، وَتَطْلُبُ مُنَازَلَتَهُ ، فَإِنْ انْتَصَرَتْ عَلَيْهِ كَانَ لَهَا مَا تَسْتَحِقُّ ، وَإِنْ هَزَمَهَا كَانَ لَهُ أَنْ يَظْلَّ حَاكِمًا عَلَى الْبِلَادِ . »

قَالَ الشَّيْخُ وَقَدْ عَاوَدَهُ خَوْفُهُ عَلَى الْأَمِيرَةِ : « أَخْشَى عَلَيْكَ ، يَا ابْنَتِي ، فَالْوَزِيرُ مَا كَرَّ خَبِيثٌ وَاسِعُ الْحِيلَةِ شَدِيدُ الْقُوَّةِ وَالْبَاسِ . كُلُّ مَا فِيهِ يُنْبِئُ بِأَنَّهُ لَنْ يَتَحَوَّلَ عَنْ طَبِيعَتِهِ ، وَلَنْ يَرْجِعَ عَنْ شَرِّ وَاحِدٍ مِنْ شُرَرِهِ . »

قَالَتِ الْأَمِيرَةُ بِإِصْرَارٍ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ؛ فَهَكَذَا الْأَشْرَارُ ، وَلَكِنْ إِذْهَبْ وَنَقِذْ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْحَكِيمُ ، فَلَا رَاحَةَ لِي وَلَا هَنَاءَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، إِلَّا إِذَا أَنْقَذْتُ وَالِدِي وَأَعَدْتُ تَنْصِيحَهُمَا عَلَى

٣٤
عَرْشِ الْبِلَادِ ، وَعَاقَبْتُ الْوَزِيرَ الْغَادِرَ عَلَى مَا اقْتَرَفْتَهُ يَدَاهُ مِنْ آثَامٍ ! »

أَطَاعَهَا الشَّيْخُ الْحَكِيمُ ، وَاتَّجَهَ صَوْبَ قَصْرِ الْوَزِيرِ ، وَهُوَ لَا يَخْشَى عَلَى حَيَاتِهِ قَدْرَ خَشْيَتِهِ عَلَى حَيَاةِ الْأَمِيرَةِ .

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الْوَزِيرِ أَخْبَرَهُ بِتَحَدِّي الْأَمِيرَةِ الْفَاتِنَةَ ابْنَةَ الْمَلِكِ زَيْدَانَ لَهُ وَطَلَبِ نِزَالِهِ خَارِجَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ .

ذَهَلَ الْوَزِيرُ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ الْقَوْلَ ، وَقَالَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « أَلَا تَرَاهُ الْأَمِيرَةُ الْفَاتِنَةُ حَيَّةٌ ؟ وَكَيْفَ ذَلِكَ وَقَدْ أَخْبَرَنِي مُسَاعِدِي حَمْدَانَ أَنَّهُ قَتَلَهَا وَهِيَ طِفْلَةٌ ؟ »

وَأَمَرَ - وَهُوَ يُرْغِي وَيَزِيدُ - بِاسْتِدْعَاءِ حَمْدَانَ ، فَلَمَّا عَلِمَ حَمْدَانُ بِالْأَمْرِ تَوَجَّسَ خِيفَةً . وَلَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهُ بِأَمْرِ نَجَاةِ الْأَمِيرَةِ مِنَ الْمَوْتِ وَكَيْدِهِ عَلَيْهِ فِي هَذَا الشَّأْنِ ارْتَاعَ وَجَنًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَاكِيًا طَالِبًا الْعَفْوَ ، وَلَكِنَّ الْوَزِيرَ أَمَرَ بِقَطْعِ رَقَبَةِ الرَّجُلِ ، فَقُطِعَتْ فِي الْحَالِ . ثُمَّ أَمَرَ بِالْقَبْضِ عَلَى الشَّيْخِ الْحَكِيمِ وَسَجْنِهِ فِي الْجُبِّ مَعَ الْمَلِكِ زَيْدَانَ وَالْمَلِكَةِ أَسْمَهَانَ .

وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ ذَلِكَ ، اجْتَمَعَ الْوَزِيرُ مَعَ قَادَةِ جَيْشِهِ لِيَتَشَاوَرَ مَعَهُمْ فِي أَمْرِ الْقَبْضِ عَلَى الْأَمِيرَةِ الْفَاتِنَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ كَيْفَ أَنَّهَا جَرَوَتْ عَلَى طَلَبِ مُنَازَلَتِهِ ؛ فَسَخَرُوا جَمِيعًا مِنْ أَمْرِهَا ، وَعَرَضَ أَكْثَرُ مِنْ

وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ لِمُنَازَلَتِهَا ، فَيَقْتُلَهَا فِي الْحَالِ ، وَلَكِنَّ الْوَزِيرَ
الَّذِي كَانَ لَا يَقِلُّ بَرَاعَةً عَنْ فُرْسَانِهِ قَالَ : « سَوْفَ أَنَازِلُهَا بِنَفْسِي ،
وَيَسْعِدُنِي أَنْ أَقِضَ عَلَيْهَا لِأَلْفِيهَا فِي الْجُبِّ هِيَ الْآخَرَى ، فَلَا
تُغَادِرُهُ حَيَّةً أَبَدًا . »

وَأَمَرَ بِأَنْ يَخْرُجَ جَيْشُهُ مَعَهُ بِكَامِلِ عُدَّتِهِ وَعَتَادِهِ ؛ فَخَرَجَ الْجَيْشُ
فِي مَوْكِبٍ مَهِيْبٍ يَتَقَدَّمُهُ الْوَزِيرُ وَقَوَادِهِ ، صَوْبَ الْمَكَانِ الَّذِي
عَسَكَرَتْ فِيهِ الْأَمِيرَةُ خَارِجَ الْأَسْوَارِ .

* * *

لَمْ تَفْزَعْ الْأَمِيرَةُ وَهِيَ تُشَاهِدُ الْجَيْشَ الْعَرْمَرَمَ يَتَقَدَّمُ نَحْوَهَا .
وكَانَتْ قَدْ احْتَاطَتْ لِلْأَمْرِ ، فَطَلَبَتْ مِنَ الْقِرْدِ مَرْجَانٍ وَالنَّمْرِ وَثَابَ
وَالنَّسْرِ الذَّهَبِيَّ الْاخْتِيَاءَ بَعِيدًا وَعَدَمَ التَّقَدُّمَ لِمُسَاعَدَتِهَا إِلَّا فِي حَالَةٍ
تَعَرُّضِهَا لِلْغَدْرِ مِنَ الْوَزِيرِ وَفُرْسَانِهِ .

وَأَشَارَ الْوَزِيرُ لَجَيْشِهِ بِالْوُقُوفِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمِيرَةِ فَوْقَ جَوَادِهِ
سَاخِرًا ، وَأَشَارَ لَهَا بِطَرْفِ سَيْفِهِ قَائِلًا : « أَجِئْتُ تَتَحَدَّثُنِي أَيْتُهَا
الْأَمِيرَةُ وَتَتَحَدَّثِينَ جَيْشِي ؟ هَذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ لَمْ أَسْمَعْ بِهِ قَبْلًا ! فَتَاةٌ
وَحِيدَةٌ تَتَحَدَّى جَيْشَ مَمْلَكَةٍ بِأَكْمَلِهِ ! »

قَالَتِ الْأَمِيرَةُ بَشَاتٍ : « لَقَدْ جِئْتُ لِنِزَالِكَ أَيُّهَا الْوَزِيرُ الْمُجْرِمُ ! »

فَإِنْ كَانَ لَكَ مِنَ الشَّجَاعَةِ قَدْرٌ مَا لَكَ مِنَ الْخُبْتِ وَالِدَنَاءَةِ فَتَقَدَّمَ
لِمُنَازَلَتِي . »

اشْتَدَّ غَضَبُ الْوَزِيرِ لِسَمَاعِهِ كَلِمَاتِ الْأَمِيرَةِ ، وَتَقَدَّمَ فَوْقَ جَوَادِهِ
وَالشَّرْرُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ : « حَسَنَ أَيْتُهَا الْأَمِيرَةُ ، كُنْتُ
أَعْتَزُّمُ أَسْرَكَ وَسَجْنَكَ ، وَلَكِنِّي الْآنَ سَأَجْعَلُكَ تَدْفَعِينَ حَيَاتَكَ ثَمَنًا
لِمَا تَفَوَّهْتَ بِهِ مِنْ كَلِمَاتٍ . »

وَأَنذَعَ نَحْوَهَا بِكُلِّ قُوَّتِهِ ، مُشْهَرًا سَيْفَهُ فِي وَجْهِهَا ، فَاسْتَلَّتِ
الْأَمِيرَةُ سَيْفَهَا وَشَرَعَتْ تُلَاقِيهِ ، وَتَقَابَلَ النُّصْلَانِ فِي صَوْتِ دَاوٍ .
وَبِحَرَكَةٍ مَائِكَةٍ مَدَّ الْوَزِيرُ قَدَمَهُ نَحْوَ كَتِفِ الْأَمِيرَةِ وَكَانَ بِهَا نَصْلُ
سِكِّينَ خَفِيٍّ ، فَجَرَحَتْ السِّكِّينُ كَتِفَ الْأَمِيرَةِ وَسَالَ دَمُهَا .

فَهَقَّ الْوَزِيرُ بِصَوْتٍ عَالٍ ، وَاسْتَدَارَ لِيُهَاجِمَ الْأَمِيرَةَ الْجَرِيحَةَ مَرَّةً
آخَرَى ، وَقَابَلَتْهُ الْأَمِيرَةُ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِسَاعِدِ قَوِيٍّ ، وَبَعْدَ أَنْ صَدَّتْ
ضَرْبَتَهُ بِيَمَنِهَا ، جَذَبَتْهُ بِسِرَاها مِنْ فَوْقِ جَوَادِهِ ، فَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ
وَسَقَطَ سَيْفُهُ بَعِيدًا .

لَا حَ الرَّعْبُ فِي عَيْنِي الْوَزِيرِ ، وَزَحَفَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ هَارِبًا ،
وَلَكِنَّ الْأَمِيرَةَ لَحِقَتْ بِهِ ، وَقَبْلَ أَنْ تُسَدِّدَ ضَرْبَةً إِلَى صَدْرِهِ
بِسَيْفِهَا ، أَشَارَ الْوَزِيرُ إِلَى قَوَادِ جَيْشِهِ مِنَ الْفُرْسَانِ ، فَانْدَفَعُوا نَحْوَهُ

الأميرة فوق جياذهم رافعين حراهم . وكانوا كثرة كثرة ،
وللأميرة خبرة في شأن القلة لا الكثرة ، ورأت من أمرها الكثير
وأضافته إلى دروسها القيمة .

ولكن النجدة جاءت على غير انتظار ، فقد انطلق مرجان
و وثاب والنسر الذهبي نحو الفرسان المهاجمين ، فقبض مرجان
على فارسين بيديه وألقاهما من فوق جواذيهما فدق عنقاهما ،
وأسرع يقفز نحو غيرهما من المهاجمين ويفعل بهم نفس الشيء .
وانقض النسر على رؤوس المهاجمين وخيولهم ففروا في كل اتجاه
والنسر الذهبي يطاردهم ويمزق كل من تقع مخالبه عليه .

وتقهقر بقية الجيش خائفاً مدعوراً أمام الهجوم المباغت غير
المتوقع ، واستسلموا للأميرة الفاتنة ابنة الملك زيدان . وانقضت
الأميرة على الوزير الغادر وقبضت عليه ، وسيطها فوق رقبتيه ، وأمرته
بأن يرشدها إلى الجب الذي سجن والديها والشيخ الحكيم فيه ؛
فدلفها الوزير إلى الجب بأعلى التلال . وكان جباً عميقاً قد فُد في
الصخر ، ولا يمكن لإنسان أن يدخله ويتمكن من مغادرته .

ولكن الأميرة لم تيأس . وأشارت إلى القرد مرجان ، وكان
ماهرًا في تسلق أوعر الصخور وأعلاها ، بطريقة لا تجعلك تظن أنه
تعلمها ، وإنما فطر عليها ، وقام فيها قيام النسر بالطيران والحيتان

بالسباحة . فشرع القرد في هبوط الجب في الحال ، ولم تكذ
لمضي دقائق حتى ظهر وهو يحمل الملك زيدان فوق كتفيه ، وقد
استطالت لحيته وتغير شعره وجللها الشيب ، لقسوة ما عاناه في
الجب المظلم السحيق ، فارتمت الأميرة بين ذراعي والدها باكية
متسجبة . ولم يصدق الملك زيدان ما تشاهده عيناه ، من إنقاذ ابنته له
على تلك الصورة .

وعاود القرد مرجان هبوطه ليعود بالملكة أسمهان ، فإذا بها في
أحضان ابنتها الأميرة ، فبكت الأميرة على كتف أمها ، وحمدت
الله على نجاتها هي وأبيها . ثم أخرج القرد مرجان الشيخ الحكيم
آخر الأمر .

وانتهز الوزير فرصة انشغال الأميرة بنجاة والديها مع الشيخ
الحكيم ، فاستل خنجرًا من طيات ملابسه وهجم على الأميرة من
الخلف ، ولكن النمر وثابا كان أسرع منه ، فقفز عليه وأنشب
مخالبه في ذراعيه ، فسقط الخنجر من يد الوزير ، ونهض وهو يجري
بأقصى سرعته ، وهو لا يرى ما أمامه ، والنمر يطارده ، فزلت قدمه
وسقط داخل الجب العميق ، ومات لساعته .

وعاد الملك زيدان وزوجته الملكة أسمهان والأميرة الفاتنة والشيخ
الحكيم ، ومعهم القرد مرجان والنمر وثاب والنسر الذهبي .

وَاسْتَقْبَلَهُمْ سُكَّانُ الْمَمْلَكَةِ بِفَرَحٍ عَارِمَةٍ لِنَجَاتِهِمْ ، وَخَلَّاصِ الْمَمْلَكَةِ
مِنَ الْوَزِيرِ الشَّرِيرِ سَعْفَانَ . وَأَقِيَمَتِ الْأَفْرَاحُ احْتِفَالاً بِنَجَاةِ الْمَلِكِ
وَالْمَمْلَكَةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً . وَعَادَ الْمَلِكُ زِيدَانُ مَلِكاً عَلَى الْبِلَادِ بِفَضْلِ
شَجَاعَةِ ابْنَتِهِ الْأَمِيرَةِ الْفَاتِنَةِ .

وَبَعْدَ الْأَرْبَعِينَ يَوْماً ، اسْتَدْعَى الْمَلِكُ ابْنَتَهُ الْأَمِيرَةَ ، وَقَالَ لَهَا :
« لَقَدْ وَهَنْتُ قُورَيَّ وَاعْتَلَّتْ صِحَّتِي ، يَا ابْنَتِي ، وَلَمْ تَعُدْ لِي قُدْرَةً
عَلَى حُكْمِ الْبِلَادِ . وَإِنْ كَانَ اللَّهُ لَمْ يَرْزُقْنِي وَلِداً يَرِثُ مُلْكِي ،
فَقَدْ رَزَقْنِي بِكَ لِتَكُونِي آيَةً مِنْ آيَاتِ الْخَالِقِ الرَّحِيمِ الْعَادِلِ ، وَأَنَّكَ
لَا تَقْلِينَ شَأْناً عَنْ أَفْضَلِ الْفُرْسَانِ وَأَحْكَمِ الْمُلُوكِ ، وَلِذَا فَقَدْ أَمَرْتُ
بِتَغْيِيرِ قَوَانِينِ الْبِلَادِ لِتَسْمَحَ لَكَ بِالْجُلُوسِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَمُنْذُ
اللَّحْظَةِ فَأَنْتِ مَلِكَةٌ مَمْلَكَةِ التَّلَالِ السَّبْعَةِ . »

سَعِدَتِ الْأَمِيرَةُ بِمَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ عَزْمُ وَالِدِهَا . وَفِي الْحَالِ أَجْرِيَتْ
مَرَاسِمُ تَنْصِيحِهَا مَلِكَةً عَلَى الْبِلَادِ . وَتَزَوَّجَتِ الْأَمِيرَةُ فَارِساً وَسِيماً
شَجَاعاً . وَمِنْ بَعْدِهَا تَوَارَثَ الْحُكْمَ فِي بِلَادِهَا أَبْنَاؤُهَا وَحَفَدَتُهَا بَعْدَ
أَنْ دُونَتْ قِصَّتُهَا بِحُرُوفٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي سِجِلٍ تَارِيخِ مَمْلَكَةِ التَّلَالِ
السَّبْعَةِ .

مُغَامَرَةٌ فِي بَحْرِ الْمَرْجَانِ

صَلَّصَ جَرَسُ الْمُنْبَةِ فِي حُجْرَةِ عَلَاءِ الدِّينِ وَأَخْتِهِ التَّوَّامِ قَمَرَ
الدِّينِ . كَانَتْ قَمَرُ الدِّينِ عَلَى مَوْعِدِ يَوْمِيٍّ مَعَ النَّشَاطِ وَالْجِدِّ ،
وَعِنْدَمَا يَنْتَظِمُ أَمْرُ الْمَرْءِ مَعَ نَفْسِهِ يَهْدَأُ بِأَلْهِ وَخَيَالِهِ وَتَنْتَظِمُ أَعْمَالُهُ .

وَبِسُرْعَةٍ نَهَضَتْ قَمَرُ الدِّينِ مِنْ فِرَاشِهَا ، وَأَوْقَفَتْ جَرَسَ الْمُنْبَةِ .
وَكَانَتْ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ وَالنِّصْفُ صَبَاحاً ، مَوْعِدَ اسْتِيقَاضِهَا كُلِّ
صَبَاحٍ لِلذَّهَابِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ ، فَقَدْ كَانَ الْاِثْنَانِ فِي
الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِمَا ، حَيْثُ وُلِدَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ . لَا
يَكْبُرُ أَحَدُهُمَا وَلَا يَصَغُرُ عَنْ الْآخَرِ إِلَّا بِمِقْدَارٍ يَسْمَحُ بِالتَّنَدُّرِ ، فَعِدَّةُ
دَقَائِقَ بَيْنَ التَّوَاتُئِ لَا تَجْعَلُ أَحَدَهُمَا كَبِيراً وَالْآخَرَ صَغِيراً بِالْمَعْنَى
الْمَعْرُوفَةِ بَيْنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ .

أَسْرَعَتْ قَمَرُ الدِّينِ إِلَى أَخِيهَا عَلَاءِ الدِّينِ ، وَرَاحَتْ تَهْزُهُ

لِتَوْقِظَهُ ، وَهِيَ تَقُولُ : « هَيَّا ، هَيَّا . انْهَضْ ، يَا أَخِي الْعَزِيزَ عَلَاءَ الدِّينِ . يَجِبُ أَنْ نَغْتَسِلَ وَنَتَنَاوَلَ فُطُورَنَا وَنُسْرِعَ إِلَى مَدْرَسَتِنَا ، وَإِلَّا تَأَخَّرْنَا . »

وَقَدْ تَعَوَّدَتْ أَنْ تُنَادِيَهُ مِرَارًا ، وَأَنْ تُشَجِّعَهُ أَوْ تُهْدِدَهُ أَوْ تَتَوَعَّدَهُ حَتَّى يُلْقِيَ بِكَسَلِهِ وَيَقُومَ إِلَى مَدْرَسَتِهِ .

قَالَ عَلَاءُ الدِّينِ وَهُوَ يُخْفِي وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ تَحْتَ الْغِطَاءِ : « دَعِينِي يَا قَمَرُ الدِّينِ ، فَلَيْسَتْ بِي رَعْبَةٌ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ الْيَوْمَ . »

قَالَتْ قَمَرُ الدِّينِ : « لَا شَيْءَ جَدِيدٍ ، يَا عَزِيزِي . أَنْتَ دَائِمًا لَا رَعْبَةَ لَدَيْكَ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ . التَّجْدِيدُ فِي الْأَعْذَارِ فَقَطْ ، تَرَى مَا هُوَ عُذْرُكَ الْيَوْمَ ؟ »

قَالَ عَلَاءُ الدِّينِ : « إِنِّي مَرِيضٌ ، مَرِيضٌ جِدًّا . أ لَا تَرَيْنَ أَنِّي لَا أَقْوَى عَلَى الْقِيَامِ ؟ » وَكَانَتْ الْعِبَارَةُ الْأَخِيرَةُ هِيَ الْجَدِيدَةُ حَقًّا ، فَقَدْ ادَّعَى الْمَرَضَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ كَاذِبًا ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ بِهِ أَيُّ مَرَضٍ وَلَكِنَّهُ كَانَ دَائِمًا مَا يُلْفِقُ الْأَكَاذِيبَ كَيْ لَا يَذْهَبَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ .

قَالَتْ قَمَرُ الدِّينِ وَهِيَ تُحَاوِلُ أَنْ تَجْعَلَ ضَحِكَهَا سِرًّا مَكْتُومًا ؛ لِتُجَارِيَ أَكَاذِيبَ أَخِيهَا ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى هَدَفِهَا الْمَأْمُولِ : « إِذَا

سَاحَبِرُ وَالِدَيْنَا بِمَرَضِكَ لِإِيَّانَا بِطَبِيبٍ يُشَخِّصُ الدَّاءَ ، وَيَصِفُ الدَّوَاءَ ، وَيُحَدِّدُ لَكَ أَنْوَاعَ الطَّعَامِ وَطَرِيقَةَ الْجُلُوسِ وَالْقِيَامِ . »

كَانَ عَلَاءُ الدِّينِ يُطِلُّ بِأُذُنَيْهِ مِنْ تَحْتَ الْغِطَاءِ ، وَقَدْ شَغَلَتْهُ الدَّهْشَةُ عَنْ دَوْرِ الْمَرِيضِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ ، فَفَغَرَ فَاغَهُ ، وَحَدَّقَ إِلَى أَخْتِهِ صَائِحًا : « لَا ، لَا . مَا هَذَا الَّذِي تَقُولِينَ ، يَا أَخْتِي الْعَزِيزَةُ ؟ أَنَا لَا أَحِبُّ الدَّوَاءَ لِأَنَّهُ مُرُّ الْمَذَاقِ . »

وَعَلَاءُ الدِّينِ مُتَمَرِّسٌ مُتَعَوِّدٌ عَلَى اخْتِلَاقِ الْأَعْذَارِ ، لِهَذَا انْتَقَلَ بِسُهُولَةٍ وَيَسْرٍ إِلَى عُذْرٍ آخَرَ . وَكَانَ أَقْرَبَ إِلَى الصَّدَقِ ، فَقَالَ مُتَبَرِّمًا وَاجِمًا : « إِنِّي لَا أَحِبُّ دُرُوسَ الْعُلُومِ ، وَلَا أَحِبُّ الْحِسَابَ وَلَا الْقِرَاءَةَ . لِمَ كُلُّ هَذَا الْعَنَاءِ فِي الْقِيَامِ ، وَفِي الْغَدُوِّ وَالرَّوَاكِ ، وَالْوُقُوفِ فِي الصُّفُوفِ ، وَالْجُلُوسِ فِي الْفُصُولِ ، وَسَمَاعِ كَلَامٍ ثَقِيلٍ مُمِلٍّ ، نُسَالُ فِيهِ ، وَنُكَلِّفُ بِهِ ، وَنُمْتَحَنُ فِيهِ ؟ هَلْ تُسَاوِي هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَتَعَلَّمِينَهَا أَنْتِ وَبَقِيَّةُ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ مَا نُعَانِيهِ جَمِيعًا وَنُلَاقِيهِ فِي سَبِيلِهَا ؟ مَاذَا سَنَنْقُصُ لَوْ لَمْ نَنْجَحْ فِيهَا ، بَلْ لَوْ لَمْ نَسْمَعْهَا أَلْبَتَةً ؟ »

قَالَتْ قَمَرُ الدِّينِ : « إِنَّ كُلَّ هَذِهِ الْعُلُومِ مُهِمَّةٌ وَمُفِيدَةٌ لِلْإِنْسَانِ ؛ لِأَنَّهَا تُعَلِّمُهُ أَسْرَارَ الْكَوْنِ حَوْلَهُ وَتَفْتَحُ لَهُ آفَاقَ الْمَعْرِفَةِ ، تَمَامًا مِثْلَمَا تَفْتَحُ أَوْسَعَ النُّوَافِدِ عَلَى أَجْمَلِ الْحَدَائِقِ . هَيَّا ، هَيَّا ؛ فَلَا وَقْتَ

لِإِضَاعَتِهِ فِي الْمُنَاقَشَةِ وَالْجَدَلِ . أَلَمْ تَسْمَعْ أُغْنِيَّةَ هَيَا هَيَا إِلَى الْعَمَلِ ؟ » قَالَتْهَا قَمَرُ الدِّينِ بِصَوْتٍ جَمِيلٍ عَلَى وَقَعٍ لَحْنِ الْأُغْنِيَّةِ الْأَصِيلِ . وَاتَّجَهَ الْاِثْنَانِ خَارِجَ حُجْرَتِهِمَا فَعَسَلَا وَجْهَيْهِمَا وَبَدَّلَا مَلَابِسَهُمَا ، ثُمَّ جَلَسَا لِتَنَاوُلِ الْإِفْطَارِ مَعَ وَالِدَتِهِمَا وَوَالِدِهِمَا .

وَبَدَأَتْ قَمَرُ الدِّينِ تَأْكُلُ بِشَهِيَّةٍ كَمَا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ النَّشِيطُ الْمُتَفَائِلُ ، عَلَى حِينِ جَلَسِ عَلَاءُ الدِّينِ يَنْظُرُ إِلَى الطَّعَامِ كَأَنَّهُ دَرَسَ فِي الْعُلُومِ أَوْ الْجُغْرَافِيَا ، فَسَأَلَتْهُ وَالِدَتُهُ : « لِمَ لَا تَأْكُلُ يَا عَلَاءُ الدِّينِ ؟ » هَزَّ عَلَاءُ الدِّينِ كَتِفَيْهِ مُتَأَفِّفًا ، وَقَالَ : « لَيْسَتْ بِي حَاجَةٌ لِلطَّعَامِ ، ثُمَّ مَا فَائِدَةُ الطَّعَامِ لِلْإِنْسَانِ ؟ »

رَدَّ الْوَالِدُ : « إِنَّ الطَّعَامَ يَمُدُّ أَجْسَادَنَا بِالنَّشَاطِ وَالْقُوَّةَ وَالْحَيَاةَ وَيَرْبِطُ بَيْنَنَا بِرِبَاطٍ وَثِيقٍ ، كَمَا يَجْمَعُ فَصْلُ الْمَدْرَسَةِ بَيْنَ التَّلَامِيذِ وَالدُّرُوسِ ذَلِكَ الْجَمْعُ الْأَخْوِي . إِنَّ الطَّعَامَ لِلْإِنْسَانِ يَا عَلَاءُ الدِّينِ ، كَالْبَنْزِينِ لِلْسَّيَّارَةِ وَالطَّائِرَةِ ، بِدُونِهِ لَا تَسِيرُ السَّيَّارَةُ ، وَلَا تَطِيرُ الطَّيَّارَةُ . وَإِنْ نَفِدَ فَجَاءَ تَعَطَّلَتِ السَّيَّارَاتُ وَتَحَطَّمَتِ الطَّائِرَاتُ . هَيَا ، تَنَاوُلْ إِفْطَارَكَ حَتَّى تَسْتَطِيعَ أَنْ تُوَاصِلَ دُرُوسَكَ وَعَمَلَكَ بِنَشَاطٍ وَاهْتِمَامٍ . »

تَنَازَلَ عَلَاءُ الدِّينِ عَنْ بَعْضِ امْتِعَاضِهِ فَتَنَاوَلَ بِضْعَ لَقِيمَاتٍ ، ثُمَّ

أَسْرَعَ مَعَ أُخْتِهِ ذَاهِبَيْنِ إِلَى مَدْرَسَتِهِمَا الْإِبْتِدَائِيَّةِ الْقَرِيبَةِ ، الَّتِي تَقَعُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ الَّذِي يَعِيشَانِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ .

كَانَ الدَّرْسُ الْأَوَّلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ هُوَ دَرَسُ الْعُلُومِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ عَلَاءُ الدِّينِ الْإِجَابَةَ عَنْ أَسْئَلَةِ الْمَدْرَسِ ، وَتَكَرَّرَ الْأَمْرُ نَفْسَهُ فِي دَرَسِ الْحِسَابِ وَدَرَسِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فِي حِينِ أَجَابَتْ قَمَرُ الدِّينِ عَنْ أَكْثَرِ الْأَسْئَلَةِ فِي كُلِّ الدُّرُوسِ ، لِأَنَّهَا تَنْظُمُ وَقْتَهَا بَيْنَ الْاسْتِدْكَارِ وَاللَّعِبِ وَالسَّمْرِ وَالرِّيَاضَةِ وَالنَّوْمِ ، وَلَا تُؤَجِّلُ عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى الْغَدِ ، حَتَّى إِنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ الْأَخِيرَةَ كَتَبَتْهَا بِخَطِّ جَمِيلٍ كَبِيرٍ وَوَضَعَتْهَا أَمَامَهَا .

كَانَتْ الْمَدْرَسَةُ تُعَاقِبُ الْمُهْمِلَ وَتُثِيبُ الْمُجْتَهِدَ ؛ فَلَقِيَ عَلَاءُ الدِّينِ مَا تَعَوَّدَهُ مِنَ الْعِقَابِ وَالْمُؤَاخَذَةِ ، وَحَظِيَتْ قَمَرُ الدِّينِ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ التَّقْدِيرِ وَالْمُكَافَأَةِ .

صَحِيحٌ أَنَّ عَلَاءَ الدِّينِ وَأُخْتَهُ قَمَرُ الدِّينِ كَانَا تَوَآمِيْنِ ، وَكَانَا مُتَمَاثِلَيْنِ فِي شَكْلِهِمَا بِدَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَلَا يُمَيِّزُهُمَا عَنْ بَعْضِهِمَا سِوَى شَعْرِ قَمَرِ الدِّينِ الطَّوِيلِ وَمَلَابِسِهَا الْمُرَكَّشَةِ الْمُطْرَزَةِ . وَلَكِنَّهُمَا كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ فِي طِبَاعِهِمَا ؛ فَعَلَاءُ الدِّينِ كَانَ كَسُولًا مُهْمِلًا ، يُفْضِلُ اللَّعِبَ عَلَى الْاسْتِدْكَارِ ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الصَّدَقَ كَحَقْنَةِ

الدَّوَاءِ يَجِبُ مُرَاعَاةُ التَّعْقِيمِ فِيهَا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يَكْذِبُ أَوْ
يَخْدَعُ الْآخَرِينَ ؛ فَكَانَ يَخْلِطُ الصَّدَقَ بِالْكَذِبِ كَمَا يَغْشَى اللَّبَانُ
السَّيِّئُ اللَّبَنَ بِالمَاءِ وَالدَّقِيقُ وَالشَّمْعَ . وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْهُ أُخْتُهُ قَمَرُ
الدِّينِ ، فَقَدْ كَانَتْ نَشِيطَةً مُجِدَّةً لَا تَخْلِطُ أَوْقَاتَ الْمَذَاكِرَةِ بِأَوْقَاتِ
الْفَرَاغِ وَاللَّهُوِ . وَكَانَتْ لَا تَكْذِبُ لِأَيِّ سَبَبٍ ؛ لِأَنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ
الْكَذِبَ صِفَةُ سَيِّئَةٍ لَا تَلِيقُ بِالْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ شَجَاعًا يُفَرِّقُ بَيْنَ
الْخَطَا وَالصُّوَابِ ، وَاللَّعِبِ وَالْجِدِّ ، وَالضَّارِّ وَالنَّافِعِ .

وَعِنْدَمَا غَادَرَ عَلَاءُ الدِّينِ وَأُخْتُهُ قَمَرُ الدِّينِ مَدْرَسَتَهُمَا ، قَالَ عَلَاءُ
الدِّينِ لِأُخْتِهِ ، وَهُمَا يَمْرَأَانِ عَائِدَتَيْنِ بِشَاطِئِ الْبَحْرِ : « لَقَدْ تَعَبْنَا كَثِيرًا
مِنْ دُرُوسِ الْيَوْمِ ، فَمَا رَأَيْكَ فِي اللَّعِبِ قَلِيلًا عَلَى الشَّاطِئِ ؟ »
وَلَكِنَّ قَمَرَ الدِّينِ هَزَتْ رَأْسَهَا مُؤَكَّدَةً بِذَلِكَ رَفُضَهَا ، ثُمَّ قَالَتْ
بِصَوْتٍ صَارِخٍ : « لَا ، لَا يَا عَلَاءُ الدِّينِ ، يَجِبُ أَنْ نَعُودَ إِلَى
مَنْزِلِنَا . إِنَّ أَبَوَيْنَا يَنْتَظِرَانَا الْآنَ ، وَيَعْدَانِ الدَّقَائِقَ وَالثَّوَانِي . إِنَّهُمَا لَا
يُطِيقَانِ تَأْخُرَنَا عَنْ مَوْعِدِنَا وَلَوْ قَلِيلًا . هَلْ تَفْهَمُ ، يَا عَلَاءُ الدِّينِ ؟ »

صَاحَ عَلَاءُ الدِّينِ : « إِنَّا لَنْ نَتَأَخَّرَ كَثِيرًا . »

وَخَلَعَ مَلَابِسَهُ بِسُرْعَةٍ ، وَكَانَ يَرْتَدِي تَحْتَهَا لِبَاسَ الْبَحْرِ ، وَأَلْقَى
بِنَفْسِهِ فِي الْمَاءِ .

وَوَقَفَتْ قَمَرُ الدِّينِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ وَهِيَ تُرَاقِبُ أَخَاهَا بِصَبْرِ
نَافِدٍ ، وَتُحَاوِلُ أَنْ تُتْلِحَ حَقَّهُ وَهُوَ يَغُوصُ وَيَطْفُو ، وَصَاحَتْ بِهِ أَخِيرًا :
« هَيَّا اخْرُجْ ، يَا عَلَاءُ الدِّينِ ، وَلَا سَبَبَ الْقَلْقُ لِدَوَالِدِنَا ، وَمَا أَكْثَرَ
مَا تَسَبَّبَ لَهُمَا الْقَلْقُ فِي الصُّدَاعِ ! أَلَا تَتَذَكَّرُ يَا عَلَاءُ الدِّينِ ؟ »

صَاحَ عَلَاءُ الدِّينِ مِنْ دَاخِلِ الْمَاءِ : « الصُّدَاعُ ! الصُّدَاعُ ! مَنْ
الَّذِي يَجْلِبُهُ الْآنَ لِلْآخَرِينَ ؟ لِمَاذَا لَا تَأْتِينَ وَتَسَبِّحِينَ مَعِيَ قَلِيلًا
يَا أُخْتِي الْعَزِيزَةَ ؟ أَلَيْسَتْ هَذِهِ فُرْصَةٌ لِلرَّاحَةِ بَعْدَ الْعَنَاءِ ؟ »

ازْدَادَتْ قَمَرُ الدِّينِ حِدَةً وَغَضَبًا ، وَصَرَخَتْ : « هَذَا لَيْسَ وَقْتُ
اللَّعِبِ وَاللَّهُوِ وَالِاسْتِحْمَامِ ، يَا عَلَاءُ الدِّينِ ! هَيَّا اخْرُجْ مِنَ الْمَاءِ .
إِنِّي أَشْفِقُ عَلَيْكَ دَائِمًا ، وَلَكِنْ أَبَوَيْنَا هُمَا الْجَدِيرَانِ وَحَدَهُمَا بِكُلِّ
مَا لَدَيْنَا مِنَ الْإِشْفَاقِ . »

ضَحِكَ عَلَاءُ الدِّينِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَمْ يُجِبْ أُخْتَهُ ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ :
« سَوْفَ أُولَفُ قِصَّةَ تَخْيِيفِ أُخْتِي قَمَرِ الدِّينِ وَتَشْغَلُهَا وَتُجَبِّرُهَا عَلَى
النُّزُولِ مَعِيَ إِلَى الْمَاءِ . »

وَتَظَاهَرَ عَلَاءُ الدِّينِ بِالْغَرَقِ ، وَرَاحَ يَصِيحُ : « أَنْقِذْنِي يَا قَمَرَ
الدِّينِ ! أَنْقِذْنِي يَا قَمَرَ الدِّينِ ! إِنِّي أُغْرَقُ ! أَقُولُ بِصَوْتٍ عَالٍ إِنِّي
أُغْرَقُ ! أَلَا تَسْمَعِينَ ؟ »

شَلَّ الْمَشْهَدُ كُلَّهُ عَقْلَهَا عَنِ التَّفْكِيرِ ، وَلِسَانَهَا عَنِ النُّطْقِ ،
وَصَعَقَتِ الدَّهْشَةُ مَلَامِحَهَا ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الصَّمْتُ وَالْجُمُودُ وَعَيْنَانِ
جَاخِظَتَانِ وَفَمٌ مَفْغُورٌ وَحَالَةٌ لِلْوَجْهِ غَرِيبَةٌ ، يُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّهَا لَا تُصَدِّقُ
مَا يَحْدُثُ .

وَلَكِنْ عَلَاءُ الدِّينِ اسْتَمَرَّ يَصِيحُ وَكَأَنَّهُ يَغْرُقُ : « أَسْرِعِي يَا قَمَرُ
الدِّينِ لِإِنْقَازِي ؛ فَإِنَّ جَنِيَّةَ الْبَحْرِ الشَّرِيرَةَ تَشْدُنِي مِنْ سَاقِي إِلَى
أَسْفَلٍ لِتُغْرِقَنِي ! » وَغَاصَ إِلَى أَسْفَلٍ كَأَنَّمَا جَنِيَّةُ الْبَحْرِ الْمَرْعُومَةُ
تَشْدُو بِالْفِعْلِ لِتُغْرِقَهُ . وَمَا كَادَتْ قَمَرُ الدِّينِ تُشَاهِدُ أَخَاهَا التَّوَامَ
يَغْطِسُ تَحْتَ الْمَاءِ ، حَتَّى انْتَفَضَتْ عَائِدَةً إِلَى وَعِيقِهَا ، وَكَانَ أَوَّلُ
شَيْءٍ فَعَلْتَهُ أَنْ صَرَخَتْ صَرْخَةً خَالِصَةً ، لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ وَلَا إِشَارَةٌ ،
وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّ جَنِيَّةَ الْبَحْرِ الشَّرِيرَةَ تَجْذِبُ أَخَاهَا مِنْ سَاقِيهِ لِتُغْرِقَهُ فِي
قَاعِ الْبَحْرِ . وَهَكَذَا يَرَى الْمَرْءُ الْأَشْيَاءَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهَا مِنْ شِدَّةِ
الدَّهْشَةِ وَهَوْلِ الْمَفَاجَأَةِ ، فَاسْرَعَتْ تَجْرِي نَحْوَ الْأَمْوَاجِ وَأَلْقَتْ
نَفْسَهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي خِضَمِّهَا ، وَرَاحَتْ تَسْبَحُ بِقُوَّةٍ ، وَبِالطَّبْعِ لَمْ
تَخْلَعْ مَلَابِسَهَا ؛ فَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ وَقْتُ لِلصَّبْرِ وَلَا لِلْفِكْرِ . وَأَخَذَتْ
تَسْبَحُ نَحْوَ أَخِيهَا وَهِيَ لَا تَعْلَمُ أَنَّهُ يَخْدَعُهَا ، وَأَنَّهُ لَيْسَتْ هُنَاكَ جَنِيَّةُ
لِلْبَحْرِ تَجْذِبُهُ لِأَسْفَلٍ لِتُغْرِقَهُ . وَلَوْ كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَخْدَعُهَا مَا ظَفِرَتْ
بِمِثْلِ هَذِهِ الْقُوَّةِ ، وَلَا بِالْقُوَّةِ الْمُعْتَادَةِ ، وَلَا بِشَيْءٍ مَا مِنْ الْقُوَّةِ .

وَضَحِكَ عَلَاءُ الدِّينِ عِنْدَمَا شَاهَدَ أُخْتَهُ تَقْتَرِبُ سَابِجَةً نَحْوَهُ
لِتُنْقِذَهُ ، فَغَاصَ فِي الْمَاءِ وَاخْتَفَى عَنْ عَيْنِي قَمَرُ الدِّينِ ، كَأَنَّمَا جَنِيَّةُ
الْبَحْرِ الشَّرِيرَةُ قَدْ أَغْرَقَتْهُ فِعْلًا .

وَغَاصَ فِي الْمَاءِ مُبْتَعِدًا عَنْ مَكَانِهِ ، وَكَتَمَ عَلَاءُ الدِّينِ أَنْفَاسَهُ
تَحْتَ الْمَاءِ قَدْرَ مَا يَسْتَطِيعُ حَتَّى ضَاقَ صَدْرُهُ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ خَارِجَ الْمَاءِ
وَتَنَفَّسَ بَعُمُقٍ ، وَأَخَذَ يَتَلَقَّى حَوْلَهُ بَاحِثًا عَنْ أُخْتِهِ قَمَرِ الدِّينِ ،
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرَهَا فِي أَيِّ مَكَانٍ .

قَالَ عَلَاءُ الدِّينِ لِنَفْسِهِ : « لَعَلَّ أُخْتِي قَمَرُ الدِّينِ غَاصَتْ لِتَبْحَثَ
عَنِّي وَتُنْقِذَنِي . سَوْفَ أَغْوِصُ لِأَفَاجِئَهَا وَهِيَ تَبْحَثُ عَنِّي . »

وَمَلَأَ صَدْرُهُ بِالْهَوَاءِ ثَانِيَةً وَغَطَسَ ، وَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ أُخْتِهِ هُنَا
وَهُنَاكَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُشَاهِدْهَا . وَعِنْدَمَا أَعْوَزَهُ الْهَوَاءُ رَفَعَ رَأْسَهُ فَوْقَ الْمَاءِ
وَهُوَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعَثُرْ لِأُخْتِهِ قَمَرِ الدِّينِ
عَلَى أَثَرٍ . وَبَدَأَ الْخَوْفُ عَلَى وَجْهِ عَلَاءِ الدِّينِ ، وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ :
« أَيْنَ ذَهَبَتْ قَمَرُ الدِّينِ ؟ » وَنَظَرَ نَحْوَ الشَّاطِئِ فَلَمَحَ حَقِيقَتَهُ وَحَقِيقَةَ
أُخْتِهِ ، وَلَكِنْ قَمَرُ الدِّينِ لَمْ تَكُنْ عَلَى الشَّاطِئِ ، وَلَا فِي الْبَحْرِ ، وَلَا
فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ .

وَكَتَسَتْ مَلَامِحُ عَلَاءِ الدِّينِ بِالْخَوْفِ الشَّدِيدِ ، وَتِلْكَ هِيَ أُولَى

عَلَامَاتِ الْأَلَمِ وَالنَّدَمِ ، فَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : « أَيْنَ أَنْتِ يَا قَمَرَ الدِّينِ ؟ قَمَرَ الدِّينِ ، أَيْنَ اخْتَفَيْتِ يَا أُخْتِي الْعَزِيزَةَ ؟ أَجِيبِيْنِي ! إِنِّي نَادِمٌ ، يَا قَمَرَ الدِّينِ ! »

وَلَمْ يَتَلَقَ رَدًّا ، وَخَطَرَ لَهُ أَنْ تَكُونَ أُخْتُهُ قَدْ عَرِقَتْ ؛ فَظَهَرَ الرُّعْبُ فِي عَيْنَيْهِ ، وَصَاحَ ثَانِيَةً : « أَيْنَ أَنْتِ يَا قَمَرَ الدِّينِ ؟ لَقَدْ نَدِمْتُ ! إِنَّنِي هُنَا لَمْ أَغْرُقْ . هَيَّا أَظْهَرِي ، يَا قَمَرَ الدِّينِ ، وَدَعِينَا نَعُدُّ إِلَى الْمَنْزِلِ . كُنْتُ تُرِيدِينَ أَنْ نَعُودَ ؛ فَهَيَّا بِنَا كَيَّ نَعُودَ إِلَى الْمَنْزِلِ . كُنْتُ تَخْشَيْنِ عَلَى أَمْنَا وَأَيْنَا مِنَ الصُّدَاعِ ، فَهَآنَذَا أَعَانِي مِنْهُ وَأَعْرِفُ مَا تَعْرِفُونَهُ عَنْهُ . »

وَلَكِنْ قَمَرَ الدِّينِ لَمْ تَرُدَّ أَوْ تَظْهَرُ بِأَيِّ حَالٍ . وَارْتَعَدَ عَلَاءُ الدِّينِ وَغَاصَ فِي الْبَحْرِ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ يُقَلِّبُ الْمَاءَ وَيَفْحَصُ الْمَوْجَ وَيَتَصَفَّحُهُ ؛ فَلَمْ يَعْثُرْ لَهَا عَلَى أَثَرٍ . وَلَعِبَ بِهِ الرُّعْبُ فَخَرَجَ مِنَ الْمَاءِ وَهُوَ يَبْكِي وَيَصِيحُ : « أَيْنَ ذَهَبْتَ ، يَا قَمَرَ الدِّينِ ؟ أَيْنَ أَنْتِ ، يَا أُخْتِي الْعَزِيزَةُ ؟ »

وَسَالَتِ الْعِبْرَاتُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَأَخْفَى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ وَهُوَ يَحْدُثُ نَفْسَهُ بِصَوْتٍ بَاكِ : « لَا بُدَّ أَنَّهَا عَرِقَتْ ! لَقَدْ عَرِقَتْ قَمَرَ الدِّينِ ، وَأَنَا السَّبَبُ فِي عَرَقِهَا . مَاذَا أَفْعَلُ الْآنَ ؟ وَمَاذَا أَقُولُ لِأَبِي وَأُمِّي إِذَا سَأَلَانِي عَنْ أُخْتِي الْعَزِيزَةَ قَمَرَ الدِّينِ ؟ لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَعُودَ بِدُونِهَا

إِلَى الْمَنْزِلِ أَبَدًا . »

وَأَخَذَ يَبْكِي بِحَرَقَةٍ مَرَّةً أُخْرَى ، حَتَّى احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ شِدَّةِ الْبُكَاءِ ، وَبَحَّ صَوْتُهُ مِنَ الصُّرَاحِ وَالنَّدَاءِ عَلَى أُخْتِهِ قَمَرَ الدِّينِ .

وَفَجْأَةً هَزَّ الْمَكَانَ صَوْتُ ضِحْكَةٍ مُجَلِّجَةٍ ، فَكَفَّ عَلَاءُ الدِّينِ عَنِ الْبُكَاءِ ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ ذَاهِلًا لِيَرَى مَصْدَرَ تِلْكَ الضَّحِكَاتِ الْعَالِيَةِ الْغَرِيبَةِ ، الَّتِي تَبْدُو وَكَأَنَّهَا صَوْتُ الْبَرَقِ أَوْ الرَّعْدِ ، مُخْتَلِطًا بِصَوْتِ هَدِيرِ الْأَمْوَاجِ الصَّاخِبَةِ وَزَنِيرِ الرِّيحِ الْعَاتِيَةِ .

وَشَاهَدَ عَلَاءُ الدِّينِ أَمَامَهُ سَيِّدَةً عَجُوزًا عَجِيبَةً الْهَيْئَةَ تَضْحَكُ ، وَكَانَتْ ضَحِكَاتُهَا هِيَ تِلْكَ الْأَصْوَاتُ الْعَجِيبَةُ الْمُخْتَلِطَةُ الْمُرْجَعَةُ .

كَانَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ تَبْدُو وَكَأَنَّ عُمْرَهَا مِائَةٌ أَوْ مِائَتَانِ ، وَرَبَّمَا أَوْشَكَ عَلَاءُ الدِّينِ أَنْ يُقَدِّرَ عُمْرَهَا بِأَلْفِ عَامٍ . وَكَانَتْ تَرْتَدِي مَلَابِيسَ سُودَاءَ طَوِيلَةٍ تَغْطِي جَسَدَهَا كُلَّهُ وَلَا يَبْرُزُ مِنْهَا إِلَّا كَفَّاهَا الْمَعْرُوقَتَانِ ، كَأَنَّهُمَا جَذُورُ شَجَرَةٍ يَابِسَةٍ .

وَكَانَ وَجْهُ الْعَجُوزِ عَجِيبًا مُرْعِبًا : فَعَيْنَاهَا غَائِرَتَانِ مُخِيفَتَانِ ، كَأَنَّهُمَا عَيْنَا صَقْرٍ ؛ وَحَاجِبَاهَا كَثِيفَا الشَّعْرِ كَلِحَاءِ شَجَرَةٍ تَبْسُ عَوْدُهَا ؛ وَأَنْفُهَا طَوِيلٌ حَادٌّ كَالْجَزَرَةِ الْحُمْرَاءِ ؛ وَفَمُّهَا مَلِيءٌ بِالتَّجَاعِيدِ وَالْخُطُوطِ كَأَنَّهُ مِينَاءٌ وَاسِعٌ تَعَطَّلَتْ عَلَى جَوَانِبِهِ قَوَارِبُ

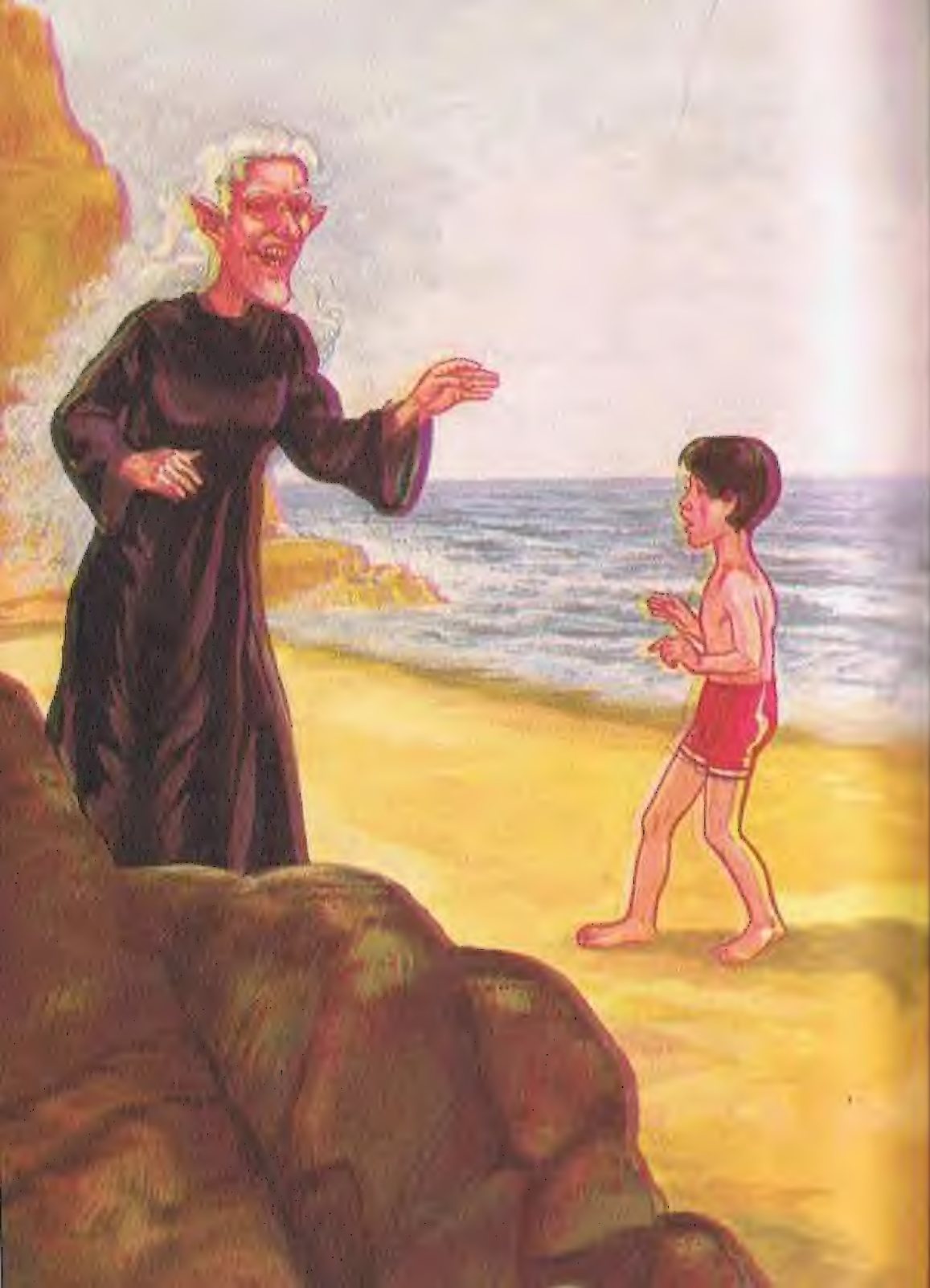
صَغِيرَةٌ مُهَشَّمَةٌ ، وَ بَشَرَتُهَا مُجَعَّدَةٌ أَشْبَهُ بِتُفَاحَةٍ أَصَابَهَا الْعَطَنُ مُنْذُ
وَقْتٍ طَوِيلٍ . وَكَانَ شَعْرُهَا أَشْيَبَ ، وَكَانَ لَهَا أُذُنَانِ عَجِيبَتَانِ
كَبِيرَتَانِ مُتَدَلِّيتَانِ ، وَتَمْتَلِكَانِ بِالْغُضُونِ وَالْعُرُوقِ الزَّرْقَاءِ .

وَقَفَّ عَلَاءُ الدِّينِ دَهْشًا حَائِرًا أَمَامَ الْعَجُوزِ الْعَجِيبَةِ ، وَقَدْ كَفَّتْ
عَنِ الضَّحِكِ ، وَرَمَقَتْهُ بَعْينُهَا ؛ فَسَأَلَهَا عَلَاءُ الدِّينِ مُرْتَعِبًا : « مَنْ
أَنْتِ ؟ »

ضَحِكَتِ الْعَجُوزُ مَرَّةً ثَانِيَةً فَخَرَجَتْ أَصْوَاتُ ضَحِكَاتِهَا كَأَنَّهَا
قَرَعُ الطُّبُولِ ، حَتَّى إِنَّ الْأَشْجَارَ الْقَرِيبَةَ ارْتَجَفَتْ أَوْرَاقُهَا وَاهْتَزَّتْ
أَغْصَانُهَا . وَقَالَتِ الْعَجُوزُ بِصَوْتٍ عَمِيقٍ حَادٍّ : « أَلَا تَدْرِي مَنْ أَنَا
أَيُّهَا الْوَلَدُ الشَّقِيُّ الْكَاذِبُ ؟ إِنِّي جِنِّيَّةُ الْبَحْرِ . »

تَرَجَعَ عَلَاءُ الدِّينِ فِي خَوْفٍ ، وَقَدْ مَلَأَ الرُّعْبُ قَلْبَهُ ، وَقَالَ غَيْرَ
مُصَدِّقٍ : « جِنِّيَّةٌ أَنْتِ ؟ أَنْتِ جِنِّيَّةُ الْبَحْرِ ؟ »

رَدَّتِ الْعَجُوزُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . إِنِّي جِنِّيَّةُ الْبَحْرِ الَّتِي اتَّهَمَتْهَا زُورًا
بِأَنَّهَا تَجْرُكُ مِنْ قَدَمَيْكَ لِتَغْرِقَكَ فِي مَاءِ الْبَحْرِ . لَقَدْ جِئْتُ لِعِقَابِكَ
عِنْدَمَا وَصَلْتُ كُلِّمَاتِكَ الْكَاذِبَةَ إِلَى أُذُنِي . إِنِّي دَائِمًا أَعَاقِبُ
الْكَاذِبِينَ وَالْمُخَادِعِينَ . أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ لَهُمْ عِقَابًا يَنْتَظِرُهُمْ طَالَ
الْوَقْتُ أَمْ قَصُرَ ؟ »



وَقَفَ عَلَاءُ الدِّينِ لَا يَدْرِي بِمَ يَنْطِقُ . وَقَطَبَتْ جَنِيَّةُ الْبَحْرِ حَاجِيَّهَا وَقَالَتْ : « إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ تُحِبُّ أُخْتَكَ قَمَرَ الدِّينِ حُبًّا جَمًّا ؛ وَلِذَلِكَ قَرَّرْتُ عِقَابَكَ بِأَنْ أَخَذَ قَمَرَ الدِّينِ مَعِيَ إِلَى قَاعِ الْبِحَارِ وَالْمُحِيطَاتِ . جَعَلْتُ عِقَابَكَ مُنَاسِبًا لَكَ . لَقَدْ خَدَعْتَهَا بَعْضَ الْوَقْتِ ، فَاخْتَرْتُ لَكَ أَنْ أُحْرِمَكَ مِنْهَا كُلَّ الْوَقْتِ . إِنَّكَ وَلَدَ كَذَّابٍ مُخَادِعٍ تَسْتَحِقُّ الْحِرْمَانَ مِنْ أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ وَالْأَشْخَاصِ إِلَيْكَ . »

صَرَخَ عَلَاءُ الدِّينِ مُرْتَعِبًا : « لَا ، لَا . لَقَدْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ، وَعَرَفْتُ أَنِّي أَسْتَحِقُّ مَا يَحْدُثُ لِي . وَلَكِنْ أَسْتَخْلِفُكَ بِأَحَبِّ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَيْكَ وَأَحَبِّ شَيْءٍ أَنْ تُجِيبَنِي ؛ أَعْرِفْتُ أُخْتِي قَمَرَ الدِّينِ ؟ »

أَجَابَتْ جَنِيَّةُ الْبَحْرِ : « إِنَّ أُخْتَكَ لَمْ تَغْرُقْ . إِنَّهَا فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ ، وَسَوْفَ تَظَلُّ مَعِيَ إِلَى الْأَبَدِ . أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ هَذَا أَقْسَى عِقَابٍ لَكَ أَيُّهَا الْوَلَدُ الشَّقِيُّ ؟ »

صَرَخَ عَلَاءُ الدِّينِ بِصَوْتٍ بَاكِ : « لَا ، لَا . لَا آيَّتُهَا الْجَنِيَّةُ . أَرْجُوكِ دَعِي أُخْتِي قَمَرَ الدِّينِ . أَرْجُوكِ أَعِيدِيهَا إِلَيَّ فَأَنَا أَحِبُّهَا ، وَأَبْوَائِي يَنْتَظِرَانَا ، وَلَا يُطِيقَانِ انْتِظَارَنَا طَوِيلًا . إِنَّهُمَا يَعُدَّانِ الدَّقَائِقَ وَالثَوَانِي وَيَقْلِقَانِ إِذَا تَأَخَّرْنَا ، وَكَثِيرًا مَا يُصِيبُهُمَا الْقَلَقُ بِالصَّدَاعِ . »

وَبَكَى بِحُرْقَةٍ وَهُوَ يَتَوَسَّلُ إِلَى الْجَنِيَّةِ الْعَجُوزِ ، وَلَكِنَّهَا رَدَّتْ بِحَسَمٍ : « لَنْ أَرْحَمَكَ أَبَدًا . إِنَّ الرِّحْمَةَ مَعَ مِثْلِكَ تَضُرُّ أَكْثَرَ مِمَّا تَنْفَعُ . اسْمَعْ ! الْقَسْوَةُ هِيَ الدَّوَاءُ الَّذِي يُنَاسِبُ حَالَتَكَ . يَجِبُ أَنْ تَحْمِلَ عَاقِبَةَ كَذِبِكَ وَخِدَاعِكَ . إِنْ كُنْتُ تُرِيدُ اسْتِعَادَةَ أُخْتِكَ قَمَرَ الدِّينِ فَابْحَثْ عَنْهَا . ابْحَثْ عَنْهَا فِي كُلِّ بَحَارِ الدُّنْيَا وَمُحِيطَاتِهَا ! » وَأَخَذَتْ تَسِيرُ فَوْقَ الْمَاءِ . وَانْدَفَعَ عَلَاءُ الدِّينِ خَلْفَهَا بَاكِيًا مُتَوَسِّلًا وَهُوَ يَقُولُ : « أَرْجُوكِ آيَّتُهَا الْجَنِيَّةُ ! أَرْجُوكِ أَعِيدِي إِلَيَّ أُخْتِي الْحَبِيبَةَ قَمَرَ الدِّينِ . »

وَلَكِنَّ الْجَنِيَّةَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُ ، وَغَاصَتْ دَاخِلَ الْمَاءِ حَتَّى اخْتَفَتْ وَلَمْ يَعُدْ يَبِينُ لَهَا أَيُّ أَثَرٍ . وَانْدَفَعَ عَلَاءُ الدِّينِ وَرَاءَهَا ، غَائِصًا فِي قَلْبِ الْمَاءِ ؛ بَحْثًا عَنْ أُخْتِهِ قَمَرَ الدِّينِ .

غَاصَ عَلَاءُ الدِّينِ خَلْفَ جَنِيَّةِ الْبَحْرِ بِسُرْعَةٍ لِيَلْحَقَ بِهَا وَيَرْجُوَهَا أَنْ تُعِيدَ إِلَيْهِ أُخْتَهُ قَمَرَ الدِّينِ . وَنَسِيَ أَنْ يَتَنَفَّسَ نَفْسًا عَمِيقًا ، وَأَدْهَشَهُ أَنَّهُ ظَلَّ يَعُوضُ دَاخِلَ الْمَاءِ بِدُونِ أَنْ يَضِيقَ صَدْرُهُ ، وَأَصْبَحَ يَتَنَفَّسُ كَأَنَّمَا نَبَتَ لَهُ خَيَاشِيمُ مَكَانِ رِئَتَيْهِ ، وَكَانَ هَذَا جِدًّا عَجِيبًا ، وَلَمْ يَدْرِ لَهُ تَفْسِيرًا .

بَحَثَ عَلَاءُ الدِّينِ عَنْ جَنِيَّةِ الْبَحْرِ هُنَا وَهُنَا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ لَهَا

على أثر ، فقد اختفت بسرعة عجيبة كأنها سمكة ماهرة تعرف طريقها تماماً داخل الماء . وحرار أين يتجه داخل البحر الفسيح ، فقد كان يعلم أن البحر جد واسع ، وعندما كان يقف على الشاطئ من قبل لم يكن يستطيع أن يبلغ مداه بعينه ، ولم يستخدم خياله من قبل لقياس مساحته ، ولذلك قدر أن البحر كبير جداً .

وكان علاء الدين لا يزال في منطقة قليلة الغور قرب الشاطئ . وعلى بعد أمتار قليلة وصل القاع ، وكان ممتلئاً بمختلف الأنواع من القواقع الزاهية الملونة .

وشاهد بعض الأسماك الملونة تسبح جماعات ، فغاص نحوها مسرعاً وهتف بها منادياً : « آيتها السمكات الجميلات الفاتنات ، أما رأيتم أختي قمر الدين ؟ »

ولكن الأسماك الملونة رمت علاء الدين بلا اهتمام ولم ترد عليه وسبحت بعيداً ، وهي تتعجب من شكله ؛ إذ لم يكن له زعانف أو قشور أو ذيل مثلها ومثل أي سمكة في عالم البحار ، بل كانت له يدان وساقان شأن كل إنسان . وكما أن السمك لا يعيش خارج الماء ، فإن الإنسان لا يستطيع العيش في قلب الماء ؛ لذلك تعجب السمك ودهش .

واستدار علاء الدين داخل الماء كسيفاً ، ولم يجد أحداً يسأله أو يشكو إليه ، فأتجه إلى داخل نفسه يتهل في ضراعة : « ماذا أفعل الآن يا ربّي ؟ كيف أبحث عن شقيقتي وتوأمي قمر الدين في هذا البحر الواسع العميق ؟ أين قراره ؟ أين سكّانه ؟ كيف يتفاهمون ؟ أتراني ، يا ربّي ، مكلفاً بالبحث عنها ؟ كيف وليس لي علم بعالم البحار العجيب ؟ ليتني قرأت كتاب العلوم المدرسي عن البحار والأسماك ، أو حتى قرأت كتاباً من الكتب الكثيرة التي تمتلئ بها مكتبة أبي عن البحار والمحيطات والأسماك وكل الأحياء النباتية . لو أنني فعلت ذلك لكان سهلاً علي البحث عن قمر الدين .

« آه يا قمر الدين ! بماذا ، يا أختي ، كنت تحسّن وأنت تدعيني وتشجعيني ، وتلحين علي أن أطلع على كتب مكتبة الفصل ومكتبة المدرسة ، وبعض المكتبات المنتشرة في المدن والأحياء ؟ »

واغرورت عيناه بالدموع التي اختلطت بماء البحر ، وجلس في القاع حزناً ، وأخفى وجهه يديه لا يريد أن يرى ما حلّ به ولا عجزه عن دفعه ، وهو يتحب بشدة ولا يدري ماذا يفعل .

وفجأة لمست يد رقيقة كتف علاء الدين ، ولم يصدق -

لِلْحَظَةِ - لِفَرَطِ رَفَّتِهَا أَنَّهَا يَدٌ ، وَسَمِعَ صَوْتًا حَانِيًا يَسْأَلُهُ : « لِمَاذَا
تَبْكِي ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ ؟ »

فَتَحَّ عَلَاءُ الدِّينِ عَيْنَيْهِ دَهْشًا فَشَاهَدَ مَخْلُوقَةً عَجِيبَةً ، هِيَ مَزِيجٌ
مِنَ الْإِنْسَانِ وَالسَّمَكِ ؛ فَقَدْ كَانَ النِّصْفُ الْأَعْلَى لَهَا يُشْبِهُ وَجْهَ
وَشَعْرَ وَجَسْمَ فَتَاةٍ صَغِيرَةٍ فِي الثَّاسِعَةِ أَوِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْعُمُرِ ، أَمَّا
النِّصْفُ الْأَسْفَلُ فَكَانَ نِصْفَ سَمَكَةٍ ، لَهُ قِشْرٌ وَذَيْلٌ ذَهَبِيُّ اللَّوْنِ .
وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَخْلُوقَةُ الْعَجِيبَةُ ذَاتَ شَعْرٍ أَسْوَدَ طَوِيلٍ يَصِلُ إِلَى
مُنْتَصَفِ ذَيْلِهَا الذَّهَبِيِّ اللَّوْنِ .

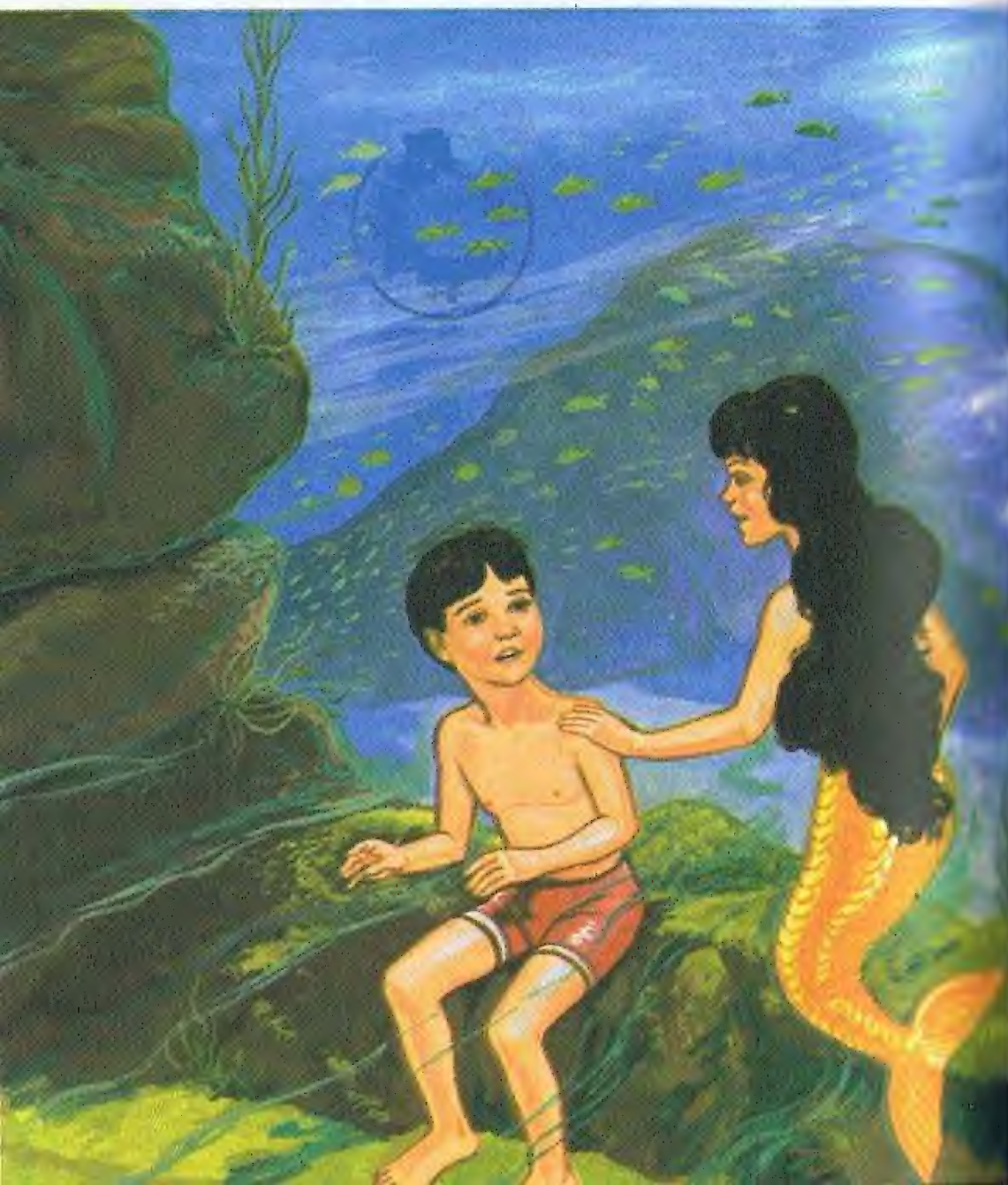
ارْتَعَدَ عَلَاءُ الدِّينِ ، حَتَّى إِذَا مَا سَكَنَ عَنْهُ الْخَوْفُ وَالْأَرْتَبَاكُ
هَتَفَ قَائِلًا مُتَوَسِّلًا : « مَنْ أَنْتِ أَيَّتُهَا الْمَخْلُوقَةُ الْعَجِيبَةُ ؟ أَأَنْتِ فَتَاةٌ
أَمْ سَمَكَةٌ أَمْ أَنْتِ جَنِّيَّةٌ مِنْ جَنِّيَّاتِ الْبَحْرِ ؟ إِنِّي سَمِعْتُ وَرَأَيْتُ فِعْلًا
مُنْذُ قَلِيلٍ شَيْئًا اسْمُهُ جَنِّيَّةُ الْبَحْرِ ، فَهَلْ أَنْتِ جَنِّيَّةُ الْبَحْرِ ؟ »

ابْتَسَمَتْ وَقَالَتْ : « إِنِّي لَسْتُ أَيًّا مِمَّا ذَكَرْتَ . إِنِّي عَرُوسُ
الْبَحْرِ . »

تَعَجَّبَ عَلَاءُ الدِّينِ وَسَأَلَ عَرُوسَ الْبَحْرِ : « هَلْ هُنَاكَ
عَرَائِسُ لِلْبَحْرِ تَعِيشُ حَتَّى الْآنَ دَاخِلَ الْبَحَارِ ؟ »

رَدَّتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، وَإِنْ كَانَ عَدَدُنَا صَارَ قَلِيلًا

لِلْغَايَةِ فِي كُلِّ بَحَارِ الْعَالَمِ . إِنَّا نَكَادُ نَعُدُّ عَلَى الْأَصَابِعِ . »
وَمَالَتْ عَلَى عَلَاءِ الدِّينِ بِرُقَّةٍ وَسَأَلَتْهُ : « لِمَاذَا كُنْتَ تَبْكِي أَيُّهَا



الصَّدِيقُ ؟ وَكَيْفَ لَكَ أَنْ تَتَحَدَّثَ وَتَتَنَفَّسَ تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ وَأَنْتَ
بَشَرٌ ، وَالْبَشَرُ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْعَيْشَ تَحْتَ الْمَاءِ ؟»

قَصَّ عَلَيْهَا عَلَاءُ الدِّينِ مَا حَدَّثَ لَهُ وَلَأَخْتِهِ قَمَرَ الدِّينِ ، وَأَنْصَتَتْ
إِلَيْهِ عَرُوسُ الْبَحْرِ بِاهْتِمَامٍ بِالْغَيْرِ ، ثُمَّ قَالَتْ : « لَا بُدَّ أَنْكَ أَغْضَبْتَ
جَنِيَّةَ الْبَحْرِ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى جَعَلْتَهَا تُعَاقِبُكَ بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ ، فَهِيَ
جَنِيَّةٌ طَيِّبَةٌ وَلَا تُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا إِذَا كَانَ شَرِيرًا أَوْ كَاذِبًا .»

أَطْرَقَ عَلَاءُ الدِّينِ بِحُزْنٍ ، وَقَالَ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . إِنَّنِي كَثِيرًا
مَا أَدْعَيْتُ أَنِّي رَأَيْتُ جَنِيَّةَ الْبَحْرِ تُغْرَقُ السُّفْنَ وَتَخْتَطِفُ الْأَبْرِيَاءَ .
وَفِي آخِرِ مَرَّةٍ أَتَهَمْتُهَا كَذِبًا بِأَنَّهَا تَجُرُّ قَدَمِي فِي الْمَاءِ لِتُغْرِقَنِي .
كُنْتُ أَخْذَعُ أَخْتِي قَمَرَ الدِّينِ .»

قَالَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ بِإِشْفَاقٍ : « لَقَدْ فَاتَ أَوَانُ النَّدَمِ يَا صَدِيقِي ،
وَعَلَيْكَ بِمُعَالَجَةِ خَطِيئِكَ وَالْبَحْثِ عَنْ أَخْتِكَ قَمَرَ الدِّينِ . مِنْ حُسْنِ
الْحِظِّ أَنَّهُ صَارَتْ لَكَ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّنَفُّسِ فِي الْمَاءِ .»

قَالَ عَلَاءُ الدِّينِ بِحُزْنٍ : « وَكَيْفَ أَعُثِّرُ عَلَى أَخْتِي الْحَبِيبَةِ قَمَرَ
الدِّينِ فِي الْبَحْرِ وَالْمُحِيطَاتِ الْوَاسِعَةِ ، وَأَنَا أَجْهَلُ كُلِّ أَسْرَارِهَا ؟»

رَدَّتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ : « لَا تَحْزَنْ أَثِيهَا الصَّدِيقُ ؛ إِنَّا - سُكَّانَ
الْبَحْرِ وَمَخْلُوقَاتِهِ - أَذْرَى مِنْكُمْ يَا مَخْلُوقَاتِ الْيَابِسَةِ بِفَوَائِدِ السَّبَاحَةِ

وَالْحَرَكَةِ الدَّائِمَةِ وَدِرَاسَةِ الْبَيْئَةِ ؛ وَلِهَذَا سَوْفَ أَسَاعِدُكَ فِي الْبَحْثِ ؛
فَإِنِّي خَبِيرَةٌ بِعَالَمِ الْبَحْرِ وَالْمُحِيطَاتِ . هَيَّا بِنَا فَإِنْ مُهِمَّتْنَا شَاقَّةٌ
وَطَوِيلَةٌ .»

هَتَفَ عَلَاءُ الدِّينِ وَعَيْنَاهُ تَتَأَلَّقَانِ بِرِيقِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ : « شُكْرًا ،
شُكْرًا لَكَ أَيَّتُهَا الْمَخْلُوقَةُ الرَّقِيقَةُ الطَّيِّبَةُ الْكَرِيمَةُ .»

وَأَسْرَعَ الْاِثْنَانِ يَغُوصَانِ وَيَسْبَحَانِ دَاخِلَ الْبَحْرِ الْكَبِيرِ بَحْثًا عَنْ
قَمَرَ الدِّينِ .

وَعَاصَا لِاسْفَلُ فَأَخَذَتْ الْإِضَاءَةُ ثِقَلًا تَدْرِيجِيًّا حَتَّى كَادَتْ
تَنَعِمُ ؛ فَهَتَفَ عَلَاءُ الدِّينِ فِي رَفِيقَتِهِ فَرْعًا : « أَتَيْنَ أَنْتِ ، يَا عَرُوسَ
الْبَحْرِ ؟ إِنَّنِي لَا أَرَى شَيْئًا . هَلْ حَلَّ الظَّلَامُ ؟»

قَرَّبَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ ذَيْلَهَا مِنْ عَلَاءِ الدِّينِ ، وَقَالَتْ لَهُ : « تَشَبَّثْ
بِذَيْلِي حَتَّى لَا تَغْرُقَ . إِنَّ الظَّلَامَ لَمْ يَحُلْ بَعْدَ وَلَكِنَّا كُلَّمَا تَوَعَّلْنَا
فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ قَلَّ الضُّوْءُ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْنَا مِنَ الشَّمْسِ ، حَتَّى
يَنَعِمَ تَمَامًا وَيَسُودَ الظَّلَامُ ، فَإِذَا أَخْرَجْتَ يَدَكَ لَمْ تَكَدْ تَرَاهَا .»

وَرَاحَا يَسْبَحَانِ دَاخِلَ الْأَعْمَاقِ ، فَشَاهَدَ عَلَاءُ الدِّينِ مَنَظَرًا رَائِعًا
أَدْهَشَهُ كَثِيرًا ؛ إِذْ رَأَى قِمَمًا عَالِيَةً تَمْتَدُّ مِنْ قَاعِ الْبَحْرِ إِلَى أَعْلَى
كَأَنَّهَا جِبَالٌ مَطْمُورَةٌ بِالْمَاءِ . وَلاَحَظَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ دَهْشَتَهُ ، فَقَالَتْ

لَهُ : « لَا تَدْهَشْ ، يَا عَلَاءُ الدِّينَ ، فَإِنَّ مَا تَرَاهُ أَمَامَكَ جِبَالٌ حَقِيقِيَّةٌ
تَحْتَ الْمَاءِ . إِنَّ أَعْظَمَ جِبَالِ الْعَالَمِ وَأَطْوَلَهَا تَوْجَدُ فِي الْمَحِيطَاتِ لَا
عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَاهَا إِلَّا إِذَا غَضْنَا تَحْتَ
الْمَاءِ لِمَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ . »

قَالَ عَلَاءُ الدِّينِ لِصَدِيقَتِهِ رَاجِعًا مُتَوَسِّلًا فِي ضِرَاعَةٍ ، وَهُوَ يُحْسِ
بِقُوَاهُ تَخَوُّرٌ سَرِيعًا لِقَلَّةِ مَا تَنَاوَلَهُ مِنْ طَعَامٍ : « لَقَدْ تَعَبْتُ ، فَهَلْ
يُمْكِنُنَا أَنْ نَصْعَدَ إِلَى الشَّاطِئِ وَنَسْتَرِيحَ قَلِيلًا ؟ »

وَأَفَقَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ ، وَصَعِدَ الاثْنَانِ إِلَى الشَّاطِئِ لِيَسْتَرِيحَا
قَلِيلًا ، وَتَمَدَّدَا عَلَى الرَّمَالِ وَالْمَاءِ يَصِلُ إِلَى أَطْرَافِهِمَا ، فَعَلَبَهُمَا
النَّوْمُ ، وَغَرَقَا فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ . وَبَعْدَ حِينَ اسْتَيْقَظَا وَقَدْ حَلَّ اللَّيْلُ ،
وَأَحْسَّ الاثْنَانِ بِالْقُوَّةِ تَعَوُّدًا إِلَى بَدَنَيْهِمَا ، وَهَمَّ بِالْقَفْزِ فِي الْمَاءِ
لِمُوَاصَلَةِ الْبَحْثِ عَنْ قَمَرِ الدِّينِ ، وَلَكِنَّ عَلَاءَ الدِّينِ تَوَقَّفَ وَالِدَهُشَّةً
تَعْلُو وَجْهَهُ ، فَقَدْ كَانَ مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ عِنْدَمَا نَامَ كَانَ الْمَاءُ يَصِلُ إِلَى
قَدَمَيْهِ وَإِلَى ذَيْلِ عَرُوسِ الْبَحْرِ ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ انْحَسَرَ عَنْهُمَا بِأَكْثَرِ
مِنْ ثَلَاثَةِ أَمْتَارٍ ، كَأَنَّمَا تَرَاوَجَعَ مَاءُ الْبَحْرِ إِلَى الْخَلْفِ ، فَسَأَلَ رَفِيقَتَهُ
عَنِ السَّرِّ فِي تَرَاوُجِ مَاءِ الْبَحْرِ .

أَدْرَكَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ أَنَّ مُهِمَّتَهَا عَظِيمَةٌ ، لِأَنَّهَا تَقُومُ بِدَوْرٍ

الْمُعَلِّمِ فِي الْمَدْرَسَةِ ، وَمَعَ نَوْعٍ مِنَ التَّلَامِيذِ لَا يَهْوَى التَّعَلَّمَ .

قَالَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ : « إِنَّ مَا حَدَّثَ الْآنَ يُسَمَّى « الْجَزْرُ » وَفِيهِ
يَنْحَسِرُ الْمَاءُ عَنِ الْيَابِسَةِ لِعِدَّةِ أَمْتَارٍ . أَمَّا عَوْدَةُ الْمَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً فَيُسَمَّى
« الْمَدُّ » ، وَهَذَا يَحْدُثُ مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ تَقْرِيًا بِسَبَبِ جَاذِبِيَّةِ
الْقَمَرِ . »

قَالَ عَلَاءُ الدِّينِ : « أَنْظُرِي ! إِنَّ انْحِسَارَ الْمَاءِ عَنِ الشَّاطِئِ قَدْ
تَكْشَفَ عَنْ بَعْضِ سَرَطَانَاتِ الْبَحْرِ وَالْأَصْدَافِ . إِنَّ لَهَا شَكْلًا
جَمِيلًا . »

وَأَنْحَنَى عَلَاءُ الدِّينِ فَوْقَ الْأَصْدَافِ وَالْمَحَارِ يَلْتَفِطُهَا وَيَلْهُو بِهَا ،
فَصَاحَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ تَلَوْمُهُ وَتَعَنُّفُهُ : « هَلْ نَسِيتَ أَنَّ أَمَامَنَا مُهِمَّةً
شَاقَّةً عَاجِلَةً ، وَهِيَ الْبَحْثُ عَنْ أُخْتِكَ قَمَرِ الدِّينِ ؟ » فَظَهَرَ الْأَسْفُ
وَالْخَجَلُ عَلَى وَجْهِ عَلَاءِ الدِّينِ ، وَقَالَ : « أَنَا آسِفٌ ! لَقَدْ نَسِيتُ .
هِيََا نَوَاصِلُ مُهِمَّتِنَا . »

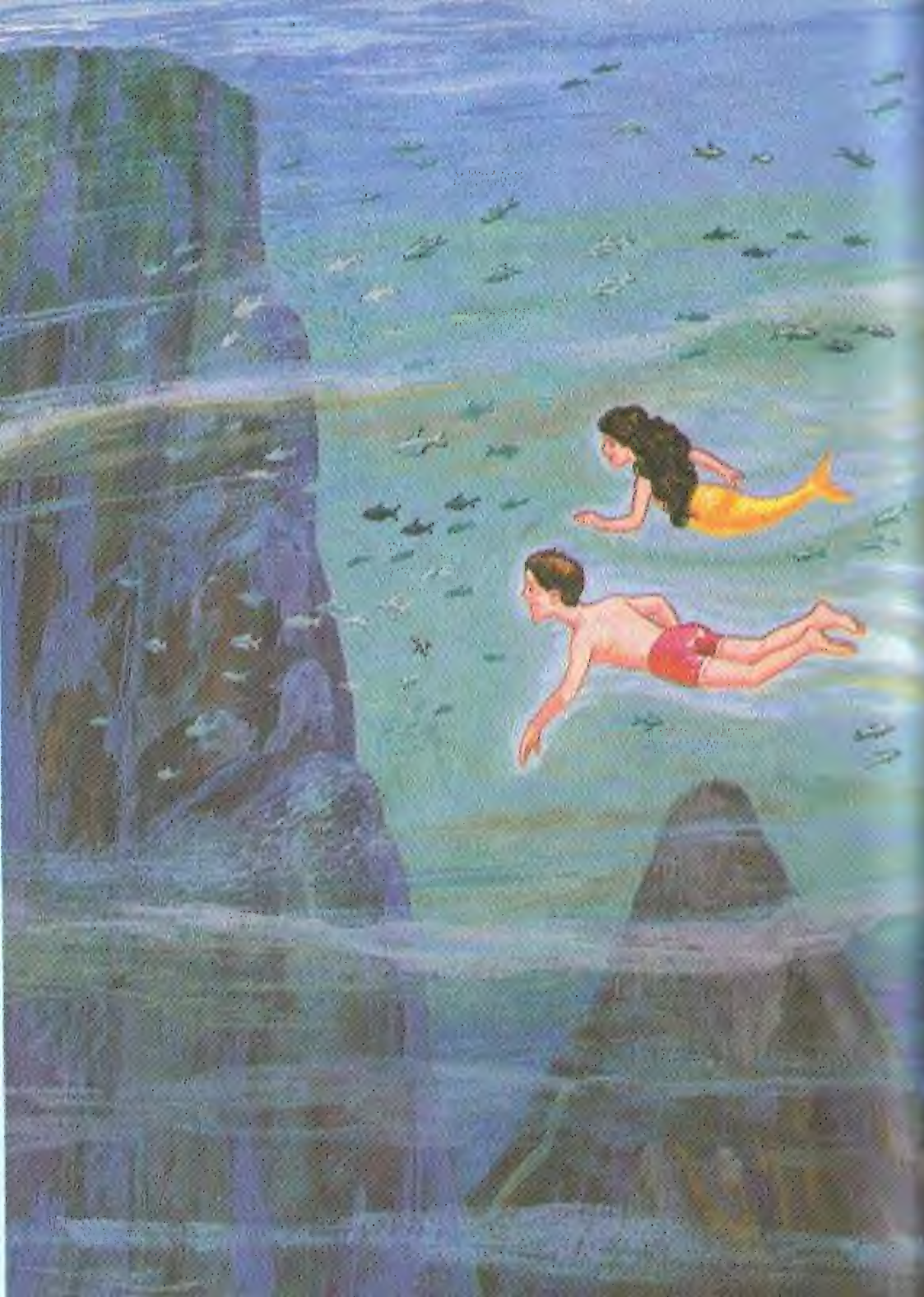
وَقَفَزَا إِلَى الْبَحْرِ ، وَشَرَعَا يَسْبَحَانِ وَيَغُوصَانِ طَوَالَ اللَّيْلِ ،
وَيَنْقَبَانِ وَيَبْحَثَانِ عَنْ قَمَرِ الدِّينِ ، وَيَسْأَلَانِ عَنْهَا كُلَّ مَا يَمُرُّ بِهِمَا مِنْ
مَخْلُوقَاتٍ بَحْرِيَّةٍ ، يَدُونِ أَنْ يُرْشِدَهُمَا أَحَدٌ إِلَى الطَّرِيقِ إِلَيْهَا .

وَشَاهَدَ عَلَاءُ الدِّينِ سَلْحَفَةً كَبِيرَةً تَسْبَحُ فِي الْمَاءِ بِأَقْدَامِهَا

الأربعة ، وقد خرج رأسها الصغير خارج درفتها الكبيرة المصفحة ،
فجلس فوق ظهرها مسروراً ، وأخذت السلحفاة الكبيرة تسبح به ،
دون أن تشعر بوجوده فوق ظهرها .

وفجأة رأى علاء الدين سرباً هائلاً من الأسماك يُقدر لكثرتهم
بالملايين ، يملأ المكان حوله ، حتى إن السلحفاة الضخمة أسرعت
هاربة من أمام ذلك السرب الضخم ، فتشبثت علاء الدين بذيلها
وسرب الأسماك يصدمه من كل اتجاه . وأفلت ذيل السلحفاة من
بين قبضتي علاء الدين ، فقد كان جيش السمك كثيفاً وهجومه
عنيفاً ؛ مما يجعل فرصة الهرب تضيق وتضيق ، وتقطع على
السلحفاة الطريق . وأخذ يغوص ويغوص والسمك يدفعه للأمام ،
فسرخ علاء الدين مستنجداً بعروس البحر التي خفت لنجدته ،
ومكنته من التشبث بذيلها جيداً ، وراحت تخرق سرب السمك
حتى ابتعدت عنه تماماً ، فتوقفت لاهثة ، وراح علاء الدين يشكر
لها صنعها الفدائي . وتدافع سرب السمك الهائل في سباحته
الجماعية . وتساءل التلميذ علاء الدين بدهشة : « أين يمضي هذا
السمك ؟ ولماذا يسبح في جماعات هائلة ؟ »

ردت عروس البحر : « هذا موسم الهجرة ، ففي هذا الموعد
يهاجر هذا النوع من الأسماك ويسمى سمك سليمان . إنه يتجه



إلى الماء العذب في رحلة جماعية ، مثلما تفعل بعض الطيور
عندما تهاجر من المناطق الباردة إلى المناطق الحارة والدافئة ، وتقطع
آلاف الكيلومترات فوق الأرض .

« لماذا يهاجر السمك ؟ »

« إنه يهاجر بحثاً عن الغذاء الوفير أو لوضع البيض ، ثم يعود ما
تبقي منه حياً من هذا الطريق الذي جاء منه في وقت محدد ، لا
يحدد عنه . »

« وكيف يعرف السمك طريقه خلال هذه المسافات الطويلة ؟ »

« هذا ما لم يعلمه أحد حتى الآن . إنه سرٌّ من أسرار الطبيعة ! »

وواصل الاثنان مهمتهما في البحث ، وعروس البحر تسأل كل
ما يصادفهما من أسماك عن قمر الدين ، ولا أحد يجيبها الإجابة
الشافية التي ينتظرانها بصبر نافذ .

وأخيراً تجاوزا البحر إلى المحيط الأطلسي ثاني محيطات العالم
حجماً . وأخبرت عروس البحر علاء الدين بوصولهما إلى المحيط ،
فسألها مستفسراً : « ما الفرق بين البحر والمحيط والنهر ؟ »

ردت عروس البحر : « إن المحيط أضخم وأكبر من البحر

عشرات المرات ، أما النهر فيختلف عنهما في أن ماءه عذب
يعكس ماء البحر والمحيط فهو ملح أجاج ، كما أن الأنهار تحصل
على مائها من سقوط الأمطار فوق منابعها ، والنهر يصب في
البحر ، ولكن البحر لا يصب في النهر . » واستمر الاثنان يسبحان
داخل المحيط وقتاً طويلاً ، وهما يواصلان بحثهما عن قمر الدين .

وفجأة ظهر لهما حوت ضخم الحجم كأنه جبل تحت الماء ،
وقد فتح فمه الواسع المرعب الذي بدا كالكهف المظلم الفسيح .
وكاد الحوت يتلع علاء الدين ، الذي تراجع مدعوراً ، وأخذ يسبح
بكل ما أوتي من قوة ، عسى أن يحمي بأحد الصخور أو إحدى
القمم العالية لجبال البحر الغاطسة ، غير أنه نجا هو وعروس البحر
في آخر لحظة .

وأخذا يسبحان مبتعدين بأقصى سرعتيهما ، وهما يبحثان ويسألان
كل ما يصادفهما من مخلوقات تحت الماء عن قمر الدين ، بدون
أن يحصلوا على أية إجابة عن سؤالهما .

وفجأة برز لهما من أعماق المحيط كائن بشع الخلقة مخيف
الهيئة غريب التكوين ؛ فقد كان يشبه الخفاش الطائر ، ولكنه كان
أضخم حجماً مئات المرات ؛ فطوله يصل إلى خمسة أمتار ، وله

مَا يُشْبِهُ الْأَجْنَحَةَ الْجَلْدِيَّةَ عَلَى جَانِبَيْهِ ، يَصِلُ طَوْلُهَا إِلَى سِتَّةِ أَمْتَارٍ ،
وَلَهُ ذَيْلٌ يُشْبِهُ السُّوطَ ، كَمَا كَانَ لَهُ رَأْسٌ عَرِيضٌ مُسَطَّحٌ بِلا رَقَبَةٍ ،
وَلَهُ عَيْنَانِ وَاسِعَتَانِ وَأَمَامَهُمَا زَعَنَفَتَانِ يَجْرِفُ بِهِمَا الْأَسْمَاكَ الصَّغِيرَةَ
إِلَى قَمِيهِ الْوَاسِعِ . وَكَانَ عَلَاءُ الدِّينِ يُرَاقِبُ الْمَخْلُوقَ الْعَجِيبَ وَهُوَ
يَقْتَرِبُ مِنْهُ فِي سُرْعَةٍ ؛ فَصَاحَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ مُحَذِّرَةً إِيَّاهُ : « اِحْذَرْ
هَذَا الْكَائِنَ الْمُتَوَحِّشَ ، يَا عَلَاءُ الدِّينِ ! »

أَفَاقَ عَلَاءُ الدِّينِ مِنْ ذُهوْلِهِ قَبْلَ أَنْ تُمْسِكَ بِهِ زَعَنَفَتَا الْمَخْلُوقِ
الَّتَانِ تُشْبِهَانِ مِشْبَكًا ضَخْمًا ، وَسَبَّحَ عَلَاءُ الدِّينِ وَعَرُوسُ الْبَحْرِ
مُسْرِعِينَ لِيَخْتَبِئَا خَلْفَ بَعْضِ الصُّخُورِ .

تَسَاءَلَ عَلَاءُ الدِّينِ مُرْتَعِبًا : « مَا ... مَا هَذَا الْمَخْلُوقُ ؟ »

أَجَابَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ : « إِنَّهُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ ، وَهُوَ عِنْدَمَا يَتَشَبَّثُ
بِأَيِّ شَيْءٍ ، وَيُمْسِكُهُ بِزَعَنَفَتَيْهِ لَا يَتْرُكُهُ أَبَدًا ، وَلَوْ كَانَ مِرْمَاةَ
سَفِينَةٍ فَإِنَّهُ سَيَهْبِطُ بِهَا إِلَى الْأَعْمَاقِ ، وَيَغْرُقُ السَّفِينَةَ بِمَا فِيهَا وَمَنْ
عَلَيْهَا ، وَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَقَعُ فَرِيْسَةً لَهُ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ سَيِّئُ الْحِظِّ ! »

وَفَجْأَةً شَقَّ شَيْطَانُ الْبَحْرِ سَطْحَ الْمَاءِ لِيَقْفِزَ فِي الْهَوَاءِ عَلَى مَسَافَةٍ
عَالِيَةٍ ، كَأَنَّهُ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ ، ثُمَّ عَادَ لِيَسْقُطَ فِي الْمَاءِ ثَانِيَةً .
وَسَرَّعَانَ مَا تَجَمَّعَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنْ شَيَاطِينِ الْبَحْرِ لِتَفْعَلَ الشَّيْءَ



نَفْسَهُ ، فَتَقَفَزَ فِي الْهَوَاءِ بِاسْطَءٍ أَجْنَحَتَهَا الْجَلْدِيَّةِ ، وَكَانَتْ تُحَلِّقُ قَلِيلًا فِي الْهَوَاءِ تَحْلِيقًا مُشِيرًا قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ فِي الْمَاءِ ثَانِيَةً .

وَبِرُغْبٍ شَدِيدٍ أَسْرَعَ عَلَاءُ الدِّينِ وَعَرُوسُ الْبَحْرِ يَتَعَدَّانِ عَنْ تِلْكَ الْمَخْلُوقَاتِ الْبَحْرِيَّةِ الْعَجِيبَةِ . وَاقْتَرَبَا مِنْ جَزِيرَةٍ بُرْكَانِيَّةٍ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ جَبَلٍ تَبَرَّزَ قِمَّتُهُ فَوْقَ سَطْحِ الْمَحِيطِ ، وَتُحِيطُ بِهَا الْمِيَاهُ مِنْ كُلِّ اتِّجَاهٍ . وَاسْتَلْقَى الْاِثْنَانِ لَاهِثَيْنِ فَوْقَ سَطْحِ الْجَزِيرَةِ ، وَهُمَا يَحْمَدَانِ اللَّهَ لِنَجَاتِهِمَا مِنْ شَرِّ شَيْطَانِ الْبَحْرِ .

وَحَدَّقَ عَلَاءُ الدِّينِ إِلَى طَائِرٍ كَبِيرٍ ذِي أَقْدَامٍ مُكَفَّفَةٍ وَهُوَ يُحَلِّقُ فَوْقَ الْمَاءِ ، بِدُونِ أَنْ يُحَرِّكَ جَنَاحِيهِ ، كَأَنَّمَا يَتَوَلَّى الْهَوَاءَ وَحْدَهُ حَمَلٍ رِيَشِهِ ، رَغَمَ أَنْ طُولَ جَنَاحِيهِ يَصِلُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَمْتَارٍ ، فَسَأَلَ عَلَاءُ الدِّينِ عَرُوسَ الْبَحْرِ عَنْهُ ، فَقَالَتْ : « إِنَّهُ طَائِرُ الْقَطْرَسِ ، وَهُوَ طَائِرٌ مَائِيٌّ شَرِسٌ ، قَدْ يُحَلِّقُ فِي السَّمَاءِ عِدَّةَ أَيَّامٍ مُتَوَاصِلَةٍ ، وَيُرَافِقُ السُّفُنَ فِي إِبْحَارِهَا ، وَهُوَ لَا يُحِبُّ الْيَابِسَةَ وَلَا يَرْتَادُهَا إِلَّا إِذَا كَانَ مُضْطَرًّا لِيَضَعَ بَيْضَهُ وَيَرْبِّي صِغَارَهُ . »

وَأَشَارَتْ إِلَى طَائِرٍ آخَرَ ذِي لَوْنٍ دَاكِنٍ وَلَهُ مِنْقَارٌ كَبِيرٌ وَيُشَبِّهُ الْغُرَابَ ، وَقَالَتْ : « هَذَا هُوَ غُرَابُ الْبَحْرِ . إِنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ طُيُورِ الْبَحْرِ مَهَارَةً وَتَحْلِيقًا بَيْنَ الْمَوْجِ وَالسَّحَابِ . »

وَكَانَ الطَّائِرُ يَتَأَهَّبُ لِلطَّيْرَانِ ، فَحَلَّقَ فِي السَّمَاءِ فَوْقَ الْمَاءِ وَهُوَ يُحَدِّقُ إِلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ ، وَفَجْأَةً انْطَلَقَ كَالْقَذِيفَةِ نَحْوَ الْمَاءِ وَغَاصَ بِدَاخِلِهِ مَسَافَةً ثَلَاثِينَ مِثْرًا ، وَخَرَجَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْآخَرَى وَفِي مِنْقَارِهِ سَمَكَةٌ كَبِيرَةٌ .

تَعَجَّبَ عَلَاءُ الدِّينِ لِمَا فَعَلَهُ الطَّائِرُ ، ثُمَّ تَذَكَّرَ مَا حَدَثَ لِأَخْتِهِ قَمَرِ الدِّينِ ، فَعَاوَدَهُ الْكَدْرُ وَالْحُزْنُ وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ بِالْدُمُوعِ ، وَلَا حِظَّ عَرُوسُ الْبَحْرِ ذَلِكَ فَقَالَتْ مُوَاسِيَةً : « سَوْفَ نَعُثِّرُ عَلَى قَمَرِ الدِّينِ ، يَا عَلَاءُ الدِّينِ ، فَتَشَبَّثَ بِالْأَمَلِ . »

وَفَجْأَةً هَبَّتْ رِيَّاحٌ قَوِيَّةٌ أَصَابَتْ عَلَاءَ الدِّينِ بِرِعْدَةٍ ، وَعَلَا الْمَوْجُ عَلَى شَاطِئِ الْجَزِيرَةِ ، وَزَادَتْ سُرْعَةُ الرِّيَّاحِ ، فَأَخَذَ عَلَاءُ الدِّينِ يَرْتَجِفُ مِنَ الْبَرْدِ وَهُوَ يَقُولُ : « مِنْ أَيْنَ تَأْتِي هَذِهِ الرِّيَّاحُ الْقَوِيَّةُ ؟ »

رَدَّتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ وَهِيَ تُحَاوِلُ إِشْعَالَ بَعْضِ الْأَعْشَابِ الْجَافَةِ بَعِيدًا عَنِ الرِّيَّاحِ : « أَنْتَ تَعْلَمُ ، يَا عَلَاءُ الدِّينِ ، أَنَّ الْأَرْضَ تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا ، وَلَكِنَّ الْهَوَاءَ لَا يَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ بِنَفْسِ سُرْعَةِ دَوْرَانِ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ أَخَفُّ مِنْهَا ؛ وَلِذَلِكَ تَحْدُثُ تَحَرُّكَاتُ الْهَوَاءِ الَّتِي نُسَمِّيهَا رِيَّاحًا ، وَكُلَّمَا اشْتَدَّتِ الرِّيَّاحُ زَادَتْ الْأَمْوَاجُ وَعَلَتْ عُلوًّا كَبِيرًا ، كَأَنَّمَا تَفُورُ . »

« وما هذه الجزيرة ؟ »

« إنها جزيرة بُركانية ، وهي تنشأ عندما تندفع الحمم من قلب أحد الجبال البركانية تحت سطح الماء ، وتخرج هذه الحمم إلى سطح الماء ، وعندما تبرد فإنها تكون ما يشبه الجزيرة .

« وثمة نوع آخر من الجزر يسمى الجزر المرجانية ، وهو ينشأ من تراكم كائنات بحرية تسمى المرجانيات ، وتتجمع مع بعضها عند موتها وتتحول إلى صخور ، ومع مرور الأحقاب تكون جزيرة مرجانية ، وقد تحمل لها الرياح والأمواج بعض البذور والحشرات التي تكفي لنمو الحياة فوقها .

ونجحت عروس البحر في إشعال النار ، فتخلق علاء الدين حولها ، وقد بدأ يشعر ببعض الدفء . وفجأة دوى صوت هائل من حولهما ، وانفجرت قمة جبل الجزيرة ، وأخذ يقذف بالحمم في كل اتجاه .

صرخت عروس البحر مدعورة : « حاذر يا علاء الدين ؛ لقد ثار البركان ! »

وأسرعت تقفز في الماء وخلفها علاء الدين ، وشرعا يسبحان بأقصى طاقتيهما ، والحمم المتفجرة من قمة جبل الجزيرة تنطلق من

خلفهما بلون متوهج كالنار المشتعلة . واشتعلت المياه حولهما ، وصارت تفور ، وهما يجاهدان ليبتعدا بأسرع ما يستطيعان ، ولكن الحمم المشتعلة المنصبة في الماء حاصرتهما من كل اتجاه . وأخذت الأمواج تصطخب وتثور بعنف ، فصرخ علاء الدين وهو يكي : « إنني لا أستطيع المقاومة . سوف أهلك . »

وكانت عروس البحر تجاهد أيضا للخروج من تلك المنطقة المشتعلة الهائجة الأمواج ، حتى خارت قواها وكادت تستسلم للحمم المنصهرة . وفجأة برز من جوف الماء حولهما بسرعة كبيرة عدد من الدرافيل ، وراحت تصبح بأصواتها الرفيعة الحادة كأنها تدعوهما إلى امتطاء ظهورها . وأسرع علاء الدين وعروس البحر إلى امتطاء ظهور الدرافيل ، التي غاصت بهما في سرعة ورشاقة ، تبعدهما عن الأمواج الصاخبة إلى جوف الماء . وبعد أن ابتعدت بهما الدرافيل سبحت إلى الشاطئ ، فقفز علاء الدين وعروس البحر من فوق ظهورها إلى الشاطئ ، وراحا يرتبان عليها ، فأطلقت الدرافيل أصواتها تعبيرا عن سعادتها ، ثم أسرعت مبتعدة .

ورأبت عروس البحر الدرافيل بسرور ، ثم قالت : « كم أنقذت الدرافيل من عرقى ، وأرشدت سقنا ضالة ونائية إلى الشاطئ ! إنها رفيق يقدم خدماته بلا ثمن ! »

عَقَّبَ عَلَاءُ الدِّينِ : « لَقَدْ أَنْقَذْتَنَا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ . »

وَبَعْدَ أَنْ اسْتَرَّاحَ عَلَاءُ الدِّينِ وَعُرُوسُ الْبَحْرِ بَعْضَ الْوَقْتِ عَلَى الشَّاطِئِ ، وَتَنَاوَلَا قَلِيلًا مِنَ الطَّعَامِ وَالْفَاكِهَةِ لِيَسْتَرِدَّا قُوَّتَهُمَا وَنَشَاطَهُمَا ، عَاوَدَا الْغَوْصَ إِلَى الْأَعْمَاقِ . وَكُلَّمَا غَاصَا لَأَسْفَلُ زَادَتْ بُرُودَةُ الْمَاءِ . وَكَانَ عَلَاءُ الدِّينِ يَعْلَمُ - كَمَا أَخْبَرَتْهُ عُرُوسُ الْبَحْرِ أَنَّهُ كُلَّمَا تَوَعَّلَ فِي قَاعِ الْمَحِيطِ أَزْدَادَ الْمَاءِ بُرُودَةً .

وَلَكِنْ فَجْأَةً تَغَيَّرَتْ دَرَجَةُ حَرَارَةِ الْمَاءِ وَصَارَ أَكْثَرَ دِفْئًا ؛ فَتَحَيَّرَ عَلَاءُ الدِّينِ وَاسْتَفْسَرَ مِنْ عُرُوسِ الْبَحْرِ عَنْ سِرِّ تَغْيِيرِ دَرَجَةِ حَرَارَةِ الْمَاءِ الْمُفَاجِئَةِ ، فَقَالَتْ لَهُ : « إِنَّ الْمَاءَ الَّذِي تَسْبَحُ فِيهِ الْآنَ ، يَا عَلَاءُ الدِّينِ ، لَيْسَ مَاءَ الْمَحِيطِ ، بَلْ هُوَ مَاءُ نَهْرٍ . »

دَهَشَ عَلَاءُ الدِّينِ وَسَأَلَ عُرُوسَ الْبَحْرِ : « وَلَكِنَّا لَا نَزَالُ فِي قَاعِ الْمَحِيطِ فَمِنْ أَيْنَ أَتَى مَاءُ النَّهْرِ الدَّافِئُ ؟ »

رَدَّتْ عُرُوسُ الْبَحْرِ : « أَ تَظُنُّ أَنَّ الْأَنْهَارَ لَا تَوْجَدُ إِلَّا عَلَى الْيَابِسَةِ ؟ لَا يَا صَدِيقِي ، فَكَمَا أَنَّ أَعْظَمَ جِبَالِ الْعَالَمِ تَوْجَدُ غَارِقَةً فِي الْمَحِيطَاتِ ، فَإِنَّ أَكْبَرَ أَنْهَارِ الْعَالَمِ تَنْسَابُ - أَيْضًا - بِدَاخِلِ الْمَحِيطَاتِ . إِنَّ هَذِهِ الْأَنْهَارَ الْمَوْجُودَةَ بِدَاخِلِ الْمَحِيطَاتِ لَيْسَ لَهَا بَدَايَةٌ أَوْ نِهَايَةٌ ، وَدَرَجَةُ حَرَارَتِهَا تَخْتَلِفُ دَائِمًا عَنْ دَرَجَةِ حَرَارَةِ مَاءِ

الْمَحِيطِ . وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَكُونُ أحيانًا ذَا لَوْنٍ مُخْتَلِفٍ عَنْ لَوْنِ مَاءِ الْمَحِيطِ . »

اسْتَمَعَ عَلَاءُ الدِّينِ لِمَا قَالَتْهُ عُرُوسُ الْبَحْرِ ذَاهِلًا ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ ، وَتَأَمَّلَ الْمَاءَ الدَّافِئَ الَّذِي يَسْبَحُ فِيهِ فَانْكَشَفَ أَنَّ لَوْنَهُ يَخْتَلِفُ بِالْفِعْلِ عَنْ لَوْنِ بَقِيَّةِ مَاءِ الْمَحِيطِ ؛ فَقَدْ كَانَ يَمِيلُ قَلِيلًا لِلْوَنِ الْأَحْمَرِ ، بِعَكْسِ مَاءِ الْمَحِيطِ الْأَزْرَقِ .

وَأَرْدَفَتْ عُرُوسُ الْبَحْرِ : « أَمَّا هَذِهِ الْأَنْهَارُ الْعَجِيبَةُ فَإِنَّ مَا يُحَرِّكُهَا دَاخِلَ الْمَحِيطَاتِ هُوَ قُوَّةُ دَوَّارِ الْأَرْضِ حَوْلَ مَحْوَرِهَا ، وَتَسْخِينُ الشَّمْسِ لِلْهَوَاءِ وَالْمَاءِ بِدَرَجَةٍ غَيْرِ مُتَكَافِئَةٍ ، وَكَذَلِكَ اعْتِرَاضُ حُدُودِ الْقَارَاتِ وَتَعَارُجُهَا لِمَجْرَى الْأَنْهَارِ . كُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تُحَافِظُ عَلَى جَرَيَانِ مِيَاهِ الْأَنْهَارِ بِدُونِ أَنْ تَخْتَلِطَ أَوْ تَنْسَابَ مُمْتَزِجَةً بِمَاءِ الْمَحِيطِ . »

هَزَّ عَلَاءُ الدِّينِ رَأْسَهُ عَجَبًا ، ثُمَّ طَفَا الْإِثْنَانِ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ الْأَزْرَقِ الصَّافِي ، الَّذِي يَبْدُو كَأَنَّهُ لَا نِهَايَةَ لَهُ .

كَانَ وَجْهُ الْمَاءِ سَاكِئًا حَوْلَهُمَا ، لَا رِيَّاحَ أَوْ أَمْوَاجَ . وَقَالَ عَلَاءُ الدِّينِ مُبْتَسِمًا : « إِنَّ الطَّقْسَ جَدُّ جَمِيلٍ فِي هَذَا الْمَكَانِ . أ لَيْسَ يُغْرِي بِالْبَقَاءِ فِيهِ ؟ مَا رَأَيْكَ لَوْ قَضَيْنَا هُنَا بَعْضَ الْوَقْتِ ، نَلْهُو

وَتَلَعَّبَ . إِنَّهَا ... »

وَمَا كَادَ يَتِمُّ عِبَارَتُهُ حَتَّى دَوَّى الرَّعْدُ فَوْقَهُمَا فَجْأَةً ، وَانْهَمَرَ مَطَرٌ غَزِيرٌ ، وَأَخَذَتِ الْأَمْوَاجُ تَصْطَخِبُ وَتَعْلُو وَتَتَصَادَمُ فِي جُنُونٍ ، وَانْقَلَبَ حَالُ الْمَحِيطِ فَصَارَ هَائِجًا ، وَصَرَخَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ فِي عِلَاءِ الدِّينِ : « تَشَبَّثْ بِذَيْلِي ، يَا عِلَاءُ الدِّينِ ، حَتَّى لَا تَفْرَقَ . »

وَلَكِنْ تَحْذِيرُهَا جَاءَ مُتَأَخِّرًا ، فَقَدْ حَمَلَهُ الْمَوْجُ بَعِيدًا ، وَرَاحَ يَضْرِبُهُ بِعُنْفٍ ، وَأَخَذَتِ الْمِيَاءُ الثَّائِرَةُ تَقْدِفُ بِهِ فِي مُخْتَلِفِ الْأَتَجَاهَاتِ . وَصَرَخَ عِلَاءُ الدِّينِ صَرَخَاتٍ رُغِبَ مُدْوِيَّةٌ مُنَادِيًا عَرُوسَ الْبَحْرِ ، وَلَكِنْ صَرَخَاتِهِ ذَهَبَتْ أَذْوَاجَ الرِّيحِ . وَانْهَكَتْهُ مُقَاوِمَةُ الْأَمْوَاجِ وَالْعَوَاصِفِ فَاسْتَسَلَّمَ لَهَا وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ يَائِسًا ، وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ .

لَقَدْ حَالَتِ الظُّرُوفُ دُونَ أَنْ يُكْمِلَ عِبَارَتَهُ الْأَخِيرَةَ الَّتِي كَانَ يَوَدُّ أَنْ يَقُولَ فِيهَا إِنَّهَا فُرْصَةٌ ؛ فَعَلَى الْمَرَّةِ أَنْ يَدْرُسَ مَا أَمَامَهُ جَيِّدًا قَبْلَ أَنْ يَصِفَهُ بِأَنَّهُ فُرْصَةٌ أَوْ عُصَّةٌ .

لَمْ يَذَرِ عِلَاءُ الدِّينِ كَمٍّ مِنَ الْوَقْتِ مَرَّ عِنْدَمَا فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا أَحَسَّ بِهِ هُوَ بُرُودَةٌ قَاتِلَةٌ تَسْرِي فِي جَسَدِهِ . إِنَّ إِحْسَاسَهُ بِالْبُرْدِ الْقَارِسِ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يُفِيقُ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ مَرَّةً

أُخْرَى . وَأَصَابَهُ الْعَجَبُ الْعُجَابُ عِنْدَمَا رَأَى نَفْسَهُ مُمَدَّدًا فَوْقَ الْأَرْضِ وَهُوَ يَرَى كُلَّ شَيْءٍ حَوْلَهُ بِلَوْنِ الثَّلْجِ ، بَلْ إِنَّ مَا يَرَقُدُ فَوْقَهُ وَظَنَّهُ أَرْضًا لَمْ يَكُنْ سِوَى جَلِيدٍ يَمْتَدُّ إِلَى مَرْمَى الْبَصَرِ . وَأَصَابَ عِلَاءُ الدِّينِ ذُهُولٌ عَمِيقٌ وَهُوَ لَا يَذَرِي أَيْنَ هُوَ ؛ فَلَمْ تَكُنْ عَرُوسُ الْبَحْرِ بِجَوَارِهِ لِتُخْبِرَهُ بِأَنَّ التِّيَّارَ حَمَلَهُ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ الْمُتَجَمِّدِ ، حَيْثُ لَا أَرْضَ هُنَاكَ ، بَلْ جَلِيدٌ يَغْطِي كُلَّ شَيْءٍ حَوْلَهُ ، كَمَا يَغْطِي كُلُّ الْقِمَمِ وَالْأَمَاكِنِ الْعَالِيَةِ فِي الْعَالَمِ .

قَالَ عِلَاءُ الدِّينِ لِنَفْسِهِ مُتَعَجِّبًا : « هَلْ مَا أَرَاهُ الْآنَ هُوَ قِمَّةُ الْعَالَمِ ؟ » وَتَسَاءَلَ كَيْفَ وَصَلَ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ . وَتَذَكَّرَ مَا حَدَّثَ لَهُ مِنْ اخْتِطَافِ جَنِّيَةِ الْبَحْرِ لِأَخْتِهِ قَمَرِ الدِّينِ ، وَعَرُوسِ الْبَحْرِ الَّتِي رَافَقَتْهُ فِي رِحْلَةِ الْبَحْثِ عَنْ أَخْتِهِ ، ثُمَّ هُبُوبِ الْعَاصِفَةِ الَّتِي صَادَفَتْهُمَا وَفَرَّقَتْهُمَا ، وَأَشْيَاءَ كَثِيرَةً أُخْرَى .

وَعِنْدَمَا تَذَكَّرَ عِلَاءُ الدِّينِ مَا حَدَّثَ لَهُ ؛ نَهَضَ مِنْ قَوْرِهِ ، وَهُوَ يُحِسُّ بِبُرْدِ قَارِسٍ ، وَلَكِنَّهُ تَغَلَّبَ عَلَى إِحْسَاسِهِ ، وَأَخَذَ يَسْتَكْشِفُ الْمَكَانَ حَوْلَهُ . لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ أَشْجَارٍ وَلَا مَزْرُوعَاتٍ ، وَشَاهَدَ عَلَى الْبُعْدِ مَجْمُوعَةً مِنَ الدَّبَبَةِ ذَاتِ الْفِرَاءِ الْأَبْيَضِ بِأَحْجَامِهَا الضَّخْمَةِ ، وَمَجْمُوعَاتٍ مِنْ سِبَاعِ الْبَحْرِ الَّتِي يَصِلُ طَوْلُ الْوَاحِدِ مِنْهَا إِلَى مِثْرِ وَنِصْفِ الْمِثْرِ ، وَهِيَ تَفْتَحُ أَفْوَاهَهَا ، وَتَرَارُ زَيْئًا عَالِيًا ، وَقَدْ بَرَزَتْ

أَنبَاهُهَا السُّفْلِيَّةُ .

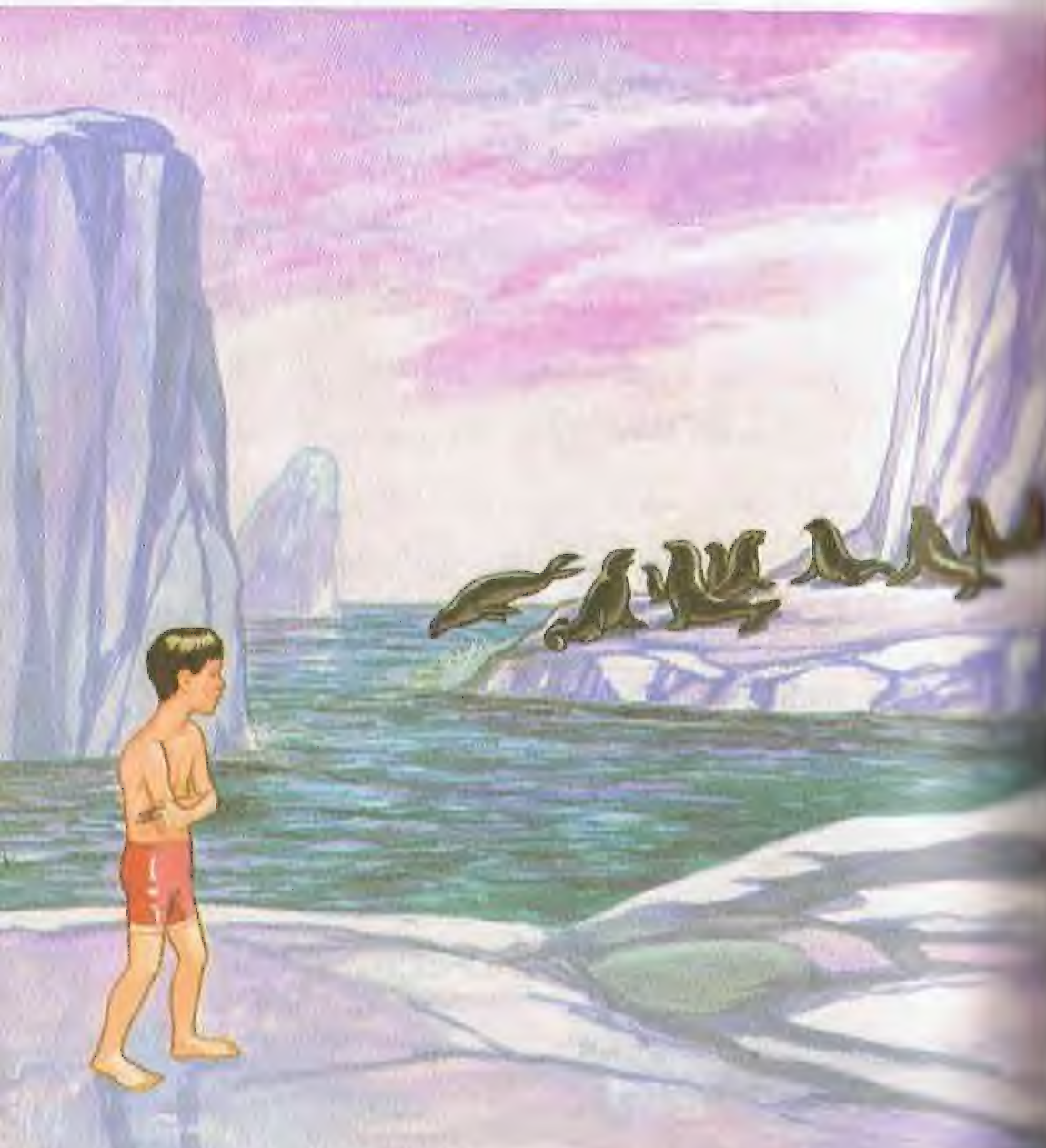
وَحَدَّقَ عَلَاءُ الدِّينِ لِحَفَظَاتِ إِلَى سِبَاعِ الْبَحْرِ ، ثُمَّ قَالَ :
« يَا لِلْحَيَوَانَاتِ الْعَجِيبَةِ الْمُنْظَرِ ! » وَوَاصَلَ سِيرَهُ وَقَدْ تَضَاعَلَ أَمَلُهُ فِي
الْعُثُورِ عَلَى أَخْتِهِ . وَلَمْ يَسْتَطِعْ عَلَاءُ الدِّينِ أَنْ يُحَدِّدَ الْوَقْتَ ، إِنْ
كَانَ صَبَاحًا أَوْ ظَهْرًا أَوْ لَيْلًا ، فَقَدْ كَانَتْ السَّمَاءُ شَبَهَ مُعْتَمَةٍ بِلا
شَمْسٍ ، وَأَمَّا يُنِيرُ الْمَكَانَ حَوْلَهُ ضَوْءٌ شَاحِبٌ كَأَنَّهُ ضَوْءُ شَمْعَةٍ .

وَاسْتَمَرَّ عَلَاءُ الدِّينِ سَائِرًا ؛ وَلَمْ يُصَادَفْ إِنْسَانًا ، وَلَقَتْ انْتِبَاهَهُ
مَجْمُوعَةٌ مِنْ طَائِرِ الْبَطْرِيقِ عَلَى ضِفَّةِ أَحَدِ الْأَنْهَارِ ، تِلْكَ الَّتِي لَمْ
تَتَجَمَّدْ تَمَامًا ، وَلَكِنَّهَا لِحَصَائِصِهَا تَوْشِكُ أَنْ تَتَجَمَّدَ ، وَطُيُورُ الْبَطْرِيقِ
تَتَصَايَحُ فِيمَا بَيْنَهَا ، بِأَحْجَامِهَا الضَّخْمَةِ وَأَجْنِحَتِهَا الَّتِي فَقَدَتْ
الْقُدْرَةَ عَلَى الطَّيْرَانِ ؛ لِثِقَلِ الْأَجْسَادِ وَصِغَرِ حَجْمِ الْأَجْنِحَةِ .

وَأَخَذَ عَلَاءُ الدِّينِ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمُنْتَجَمِ :
« قَمَرُ الدِّينِ ! يَا قَمَرُ الدِّينِ ! أَيْنَ أَنْتِ يَا قَمَرُ الدِّينِ ؟ »

وَجَاوَبَهُ الصَّدَى مِنْ كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَهُ ، مِنْ جِبَالِ الْجَلِيدِ وَأَنْهَارِ
الْجَلِيدِ . وَرَمَقَتْهُ طُيُورُ الْبَطْرِيقِ فِي تَخْمَةٍ وَسِمْنَةٍ وَكَسَلٍ وَلَمْ تَعْبَأْ بِهِ .
وَكَيْفَ تَعْبَأُ طُيُورُ الْبَطْرِيقِ بِعَلَاءِ الدِّينِ أَوْ بِغَيْرِهِ وَقَدْ سَمِيَتْ بِذَلِكَ
لَاخْتِيَالِهَا وَزَهْوِهَا ؟

وَرَأَى عَلَاءُ الدِّينِ بَعْضَ الْأَعْشَابِ الْقَلِيلَةِ النَّابِتَةِ بَيْنَ الْجَلِيدِ هُنَا
وَهُنَاكَ ، وَكَانَ يُحِسُّ بِجُوعٍ شَدِيدٍ ؛ فَتَنَاولَ بَعْضَهَا وَمَضَغَهُ ، فَلَمْ
يَسْتَطِعْ مَذَاقُهُ



وَعَادَ يُوَاصِلُ تَجَوَّالَهُ وَهُوَ يَصِيحُ مُنَادِيًا أُخْتَهُ قَمَرَ الدِّينِ وَعَرُوسَ
الْبَحْرِ دُونَ جَدَّوِي .

وَفَجْأَةً رَأَى مَجْمُوعَةً مِنْ أَفْيَالِ الْبَحْرِ الَّتِي يُعْرِفُ الْوَاحِدُ مِنْهَا
« بِالْفِظْ » ، وَكَانَ طَوْلُ كُلِّ مِنْهَا يَصِلُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَمْتَارٍ أَوْ أَكْثَرَ ،
وَوَزْنُهَا يَزِيدُ عَلَى أَلْفِ كِيلُوْغَرَامٍ . وَهُوَ غَلِيظٌ قَبِيحُ الْهَيْئَةِ لَهُ نَابَانِ
كَبِيرَانِ بَارِزَانِ ، وَأَرْجُلٌ أَمَامِيَّةٌ تَتَّجِهُ لِلْخَلْفِ ، وَجِلْدُهُ أَسْوَدٌ مُجَعَّدٌ ،
وَلِهَذِهِ التَّجْعِيدَاتِ قَوَائِدُ فِي بَيْئَتِهِ هَذِهِ .

وَفَجْأَةً بَرَزَ دُبٌّ قُطْبِيٌّ طَوِيلُ الْقَامَةِ يَسِيرُ عَلَى قَدَمَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ
وَيَصِلُ طَوْلُهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَمْتَارٍ ، وَهُوَ يَتَّجِهُ نَحْوَ عَلَاءِ الدِّينِ ، الَّذِي
صَرَخَ هَلْعًا ، وَأَخَذَ يَعْدُو بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ هَرَبًا مِنَ الدُّبِّ الَّذِي
انْحَنَى وَرَاحَ يَجْرِي خَلْفَهُ عَلَى أَرْبَعٍ . وَلِحُسْنِ حِظِّهِ اعْتَرَضَ الدُّبُّ
فِيلًا مِنْ أَفْيَالِ الْبَحْرِ الْقَوِيَّةِ ، فَزَارَ الدُّبُّ غَاضِبًا وَسَرْعَانَ مَا امْتَشَبَكَ
الْإِثْنَانِ فِي صِرَاعٍ هَائِلٍ ، الدُّبُّ يَسْتَعِدُّ مَخَالِبَهُ فِي تَمْزِيقِ فِيلِ
الْبَحْرِ ، عَلَى حِينِ رَاحَ الْأَخِيرُ يُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنْيَابِهِ الْحَادَّةِ
الرَّهْبِيَّةِ . وَلَكِنْ يَنْتَظِرُ عَلَاءُ الدِّينِ لِيَشْهَدَ نِهَآيَةَ هَذَا الصِّرَاعِ ، فَقَدْ
جَعَلَهُ الرُّعْبُ يَجْرِي وَيَجْرِي ، حَتَّى قَطَعَ مَسَافَةً طَوِيلَةً .

وَوَصَلَ عَلَاءُ الدِّينِ إِلَى حَاقَةِ الْمَحِيطِ فَرَأَى جِبَالًا مِنَ الثَّلْجِ فِي
كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ مَخْلُوقًا وَاحِدًا . وَفَجْأَةً بَرَزَتْ

نَافُورَةٌ مَاءٍ مِنْ قَلْبِ الْمَحِيطِ لِتَنْشُرَ الرِّذَاذَ فِي الْهَوَاءِ ، وَأَدْرَكَ عَلَاءُ
الدِّينِ أَنَّ تِلْكَ النَّافُورَةَ تَنْبَثِقُ مِنْ قَمَرِ حَوْتٍ مِنْ حَيْثَانِ الْمِنْطَقَةِ
الْمُتَجَمِّدَةِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ وَسِيلَةٍ لِمُعَادَرَةِ تِلْكَ الصَّخْرَةِ الْجَلِيدِيَّةِ
سِوَى الْحَيْثَانِ ، فَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ بُرُودَةَ الثَّلْجِ ، وَرَاحَ
يَسْبَحُ وَأَوْصَالُهُ تَكَادُ تَتَجَمَّدُ ، حَتَّى اسْتَطَاعَ الْوُصُولَ إِلَى الْحَوْتِ
الضَّخْمِ فَتَعَلَّقَ بِذَيْلِهِ . وَلَدَهَشَتْهُ الشَّدِيدَةُ لِمَحِ أَيْضًا رَفِيقَتَهُ عَرُوسَ
الْبَحْرِ مُتَعَلِّقَةً بِذَيْلِ ذَلِكَ الْحَوْتِ ؛ فَسَعِدَ الصَّدِيقَانِ بِتَلَاقِيهِمَا سَعَادَةً
تَعَوَّضُهُمَا عَمَّا أَصَابَهُمَا - مِنْذُ افْتِرَاقِهِمَا - مِنَ التَّعَاسَةِ وَالرُّعْبِ .

وَكَانَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ أَسْرَعَ فِي سُؤْلِهَا مِنْهُ ، فَبَادَرَتْهُ هَاتِفَةً :
« كَيْفَ حَالُكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ؟ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ قَدْ أَصِيبْتَ
بِمَكْرُوهِ ، وَلَكِنِّي أَدْرَكْتُ أَنَّ التَّيَّارَ حَمَلَكَ إِلَى هُنَا ، فَاسْرِعْتُ فِي
إِثْرِكَ لِإِنْقَادِكَ ، وَتَعَلَّقْتُ بِذَيْلِ حَوْتِ الْعَنْبَرِ الَّذِي يَعِيشُ فِي هَذِهِ
الْمِنْطَقَةِ الْمُتَجَمِّدَةِ . إِنَّهُ أَضْخَمُ حَوْتٍ فِي فَصِيلَتِهِ . وَلَكِنْ قُلْ لِي
مَاذَا حَدَثَ لَكَ ؟ »

قَصَّ عَلَاءُ الدِّينِ عَلَى عَرُوسِ الْبَحْرِ مَا حَدَثَ لَهُ ، فَعَقَّبَتْ :
« حَمْدًا لِلَّهِ . لَقَدْ سَاقَتْكَ الْأَمْوَاجُ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ ، حَيْثُ
كُلُّ شَيْءٍ مُتَجَمَّدٌ . »

تَسَاءَلَ عَلَاءُ الدِّينِ بِدَهْشَةٍ : « وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ كُلُّ جِبَالِ الثَّلْجِ ؟ »

إلى مُصَافِحَةِ الْمِيَاهِ الدَّافِقَةِ الْمُتَرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ فِي أَحْضَانِ الْمَحِيطِ .

وَهُنَاكَ تَرَكََا ذَيْلَ الْحَوْتِ ، وَرَاحَا يَغُوصَانِ ، وَقَدْ لَاحَ الْحَزْنُ الشَّدِيدُ عَلَى وَجْهِ عِلَاءِ الدِّينِ ، وَطَفَرَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ : « لَقَدْ جُبْنَا الْمَحِيطَاتِ وَالْبِحَارَ بَحْثًا عَنْ أُخْتِي الْحَبِيبَةِ قَمَرِ الدِّينِ بِدُونِ أَنْ نَعْثَرَ لَهَا عَلَى أَثَرٍ ، فَكَيْفَ سَأَعُودُ الْآنَ إِلَى وَالِدَيَّ بِدُونِهَا ؟ وَكَيْفَ سَأَحْتَمِلُ الْحَيَاةَ بِدُونِهَا ؟ إِنِّي أَحِبُّهَا ، وَلَا أَسْتَطِيعُ الْحَيَاةَ بِدُونِهَا . »

وَأَخَذَ يَنْتَحِبُ بِشِدَّةٍ وَعَرُوسُ الْبَحْرِ تُحَاوِلُ أَنْ تَهَوَّنَ الْخَطْبَ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَشْتَدُّ فِي بُكَائِهِ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ ، وَهُوَ يُحَسُّ بِالذَّنْبِ ؛ فَقَدْ رَاحَتْ أُخْتُهُ ضَحِيَّةً خِدَاعِهِ وَأَكَاذِيهِ .

وَفَجْأَةً بَرَزَتْ جَنِيَّةُ الْبَحْرِ مِنْ جَوْفِ الْمَاءِ ، وَمَا إِنَّ شَاهِدَهَا عِلَاءُ الدِّينِ حَتَّى كَفَّ عَنِ الْبُكَاءِ ، وَقَالَ لَهَا مُتَوَسِّلًا : « أَيَّتُهَا الْجَنِيَّةُ الطَّيِّبَةُ ، أَرْجُوكِ أَنْ تُعِيدِي إِلَيَّ أُخْتِي ! لَقَدْ عَاقَبْتَنِي أَشَدَّ الْعِقَابِ . لَنْ أَعُودَ إِلَى الْكَذِبِ مَرَّةً أُخْرَى . لَقَدْ لَقَنْتُ دَرْسًا قَاسِيًا هَذِهِ الْمَرَّةَ . »

وَأَخَذَتِ الدُّمُوعُ تَنْهَمِلُ مِنْ عَيْنَيْهِ ؛ فَفَرَّقَ قَلْبُ جَنِيَّةِ الْبَحْرِ لَهُ ، وَقَالَتْ : « كَفَى ، كَفَى بُكَاءَ يَا عِلَاءُ الدِّينِ . الْآنَ أَوْقِنُ أَنَّكَ

رَدَّتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ : « إِنَّهَا مَاءٌ مُتَجَمِّدٌ تَرَكَمُ مِنْذُ آلَافِ السِّنِينَ مُكَوَّنًا هَذِهِ الْجِبَالَ الَّتِي تُشَبِّهُ الْجُزُرَ الْعَائِمَةَ . إِنْ مَا تَرَاهُ أَمَامَكَ مِنْ جِبَالٍ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ ، لَا يُشَكِّلُ سِوَى جُزْءٍ مِنْ عَشْرَةِ أَجْزَاءِ مِنْ حَجْمِ الْجِبَالِ الْجَلِيدِيَّةِ الْغَائِصَةِ فِي قَلْبِ الْمَاءِ . »

قَالَ عِلَاءُ الدِّينِ يَتَعَجَّبُ : « وَلَكِنْ لِمَاذَا لَا تَغْرُقُ جِبَالَ الْجَلِيدِ فِي مَاءِ الْمَحِيطِ ؟ وَمَا الَّذِي يَجْعَلُهَا تَطْفُو هَكَذَا ؟ »

رَدَّتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ : « إِنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ يَكْمُنُ فِي أَنَّ كَثَافَةَ الثَّلْجِ أَقْلُ مِنْ كَثَافَةِ الْمَاءِ ، فَلَمَّا عِنْدَمَا يَتَحَوَّلُ إِلَى ثَلْجٍ تَقِلُّ كَثَافَتُهُ وَلِذَا فَإِنَّ قِطْعَةَ الثَّلْجِ لَا تَغْرُقُ فِي كُوبِ مَاءٍ ، وَهَذَا هُوَ مَا يَحْدُثُ بِالضَّبْطِ لِجِبَالِ الْجَلِيدِ حَوْلَنَا ، فَإِنَّهَا تَطْفُو فَوْقَ الْمَاءِ وَلَا تَغْرُقُ بِدَاخِلِهِ . »

قَالَ عِلَاءُ الدِّينِ وَهُوَ يَرْتَجِفُ : « أَرْجُو أَنْ تُغَادِرَ هَذَا الْمَكَانَ بِأَسْرَعٍ مَا يُمْكِنُنَا . إِنِّي لَا أَحْتَمِلُ هَذِهِ الْبُرُودَةَ . هِيَ أَيُّهَا الْحَوْتُ الطَّيِّبُ ، خُذْنَا إِلَى الْمِيَاهِ الدَّافِقَةِ . »

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ تَحَرَّكَ الْحَوْتُ غَائِصًا فِي الْمَاءِ ، وَعِلَاءُ الدِّينِ وَعَرُوسُ الْبَحْرِ مُتَعَلِّقَانِ بِذَيْلِهِ . وَظَلَّ الْحَوْتُ سَابِحًا مَسَافَةً طَوِيلَةً حَتَّى اخْتَفَتْ جِبَالُ الْجَلِيدِ مِنْ حَوْلَهُمَا ، وَأَحْسَا بِالْدَّفْعِ بَعْدَ أَنْ عَادَا

عَوَّقَتْ بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ . هَيَّا اسْبَحْ إِلَى الشَّاطِئِ الَّذِي فَقَدْتَ فِيهِ
أَخْتَكَ قَمَرَ الدِّينِ ، وَتَجِدُهَا هُنَاكَ لَمْ يَحْدُثْ لَهَا مَكْرُوهٌ عَلَى
الإِطْلَاقِ .

هَتَفَ عَلَاءُ الدِّينِ فَرِحًا : « إِنِّي أَشْكُرُكِ أَيَّتُهَا الْجَنِّيَّةُ الطَّيِّبَةُ .
أَشْكُرُكِ مِنْ صَمِيمِ قَلْبِي ، وَأَعِدُّكَ بِأَنِّي لَنْ أَكْذِبَ أَبَدًا أَوْ أَخْذَعَ
أَحَدًا .

قَالَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ بِسَعَادَةٍ : « وَأَنَا أَيْضًا أَشْكُرُكِ أَيَّتُهَا الْجَنِّيَّةُ
الطَّيِّبَةُ .

وَاخْتَفَتْ جَنِّيَّةُ الْبَحْرِ فِي الْحَالِ ، وَصَاحَ عَلَاءُ الدِّينِ بِعَرُوسِ
الْبَحْرِ بِلَهْفَةٍ : « وَالْآنَ ، خُذْنِي وَأَسْرِعِي إِلَى شَاطِئِ بَحْرِنَا ؛ فَقَدْ
طَالَ شَوْقِي لِرُؤْيَةِ أَخْتِي الْحَبِيبَةِ .

أَوْمَأَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ بِرَأْسِهَا ، وَتَعَلَّقَ عَلَاءُ الدِّينِ بِذَيْلِهَا ،
وَرَاخَتْ تَسْبَحُ بِهِ حَتَّى وَصَلَا أَخِيرًا إِلَى الشَّاطِئِ الَّذِي اخْتَفَتْ فِيهِ
قَمَرُ الدِّينِ . وَأَسْرَعَ عَلَاءُ الدِّينِ يُغَادِرُ الْمَاءَ ، فَشَاهَدَ أُخْتَهُ رَاقِدَةً عَلَى
الشَّاطِئِ كَأَنَّهَا نَائِمَةٌ .

أَسْرَعَ عَلَاءُ الدِّينِ صَوْبَهَا وَحَدَّقَ إِلَيْهَا وَهَزَّهَا ، فَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا
بِدَهْشَةٍ ، وَقَالَتْ : « عَلَاءُ الدِّينِ ! أَيْنَ ذَهَبْتَ ؟ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ

عَرِفْتَ فَظَلِلْتُ أَبْكِي ، وَكِدْتُ أَغْرُقُ أَنَا أَيْضًا لَوْلَا سَيِّدَةُ عَجُوزِ ذَاتِ
شَعْرِ أَشْيَبَ كَالثَّلْجِ أَنْقَذَتْنِي وَاسْتَضَافَتْنِي ، ثُمَّ عَادَتْ بِي إِلَى الشَّاطِئِ
مَرَّةً ثَانِيَةً .

سَأَلَ عَلَاءُ الدِّينِ أُخْتَهُ بِدَهْشَةٍ : « أَلَمْ تَخْطِطِي لِهَذِهِ الْعَجُوزِ
إِلَى أَعْمَاقِ الْبَحَارِ ؟

رَدَّتْ قَمَرُ الدِّينِ فِي حَيْرَةٍ : « لَقَدْ فَعَلْتُ ، وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّي
كُنْتُ أَحْلَمُ ؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَغُوصَ إِلَى أَعْمَاقِ الْبَحَارِ
وَيَعُودَ حَيًّا . لَا شَكَّ أَنَّي كُنْتُ أَحْلَمُ .

ابْتَسَمَ عَلَاءُ الدِّينِ ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُخْبِرَ أُخْتَهُ قَمَرُ الدِّينِ بِمَا حَدَّثَتْ
لَهُ ، وَاكْتَفَى بِأَنْ قَالَ : « دَعِينَا نَأْخُذُ حَقَائِبِنَا ، وَنَعُدُّ إِلَى وَالِدَيْنَا ؛
فَلَا بُدَّ أَنَّهُمَا فِي أَشَدِّ حَالَاتِ الْقَلْقِ عَلَيْنَا ، فَقَدْ انْقَضَتْ عِدَّةُ أَيَّامٍ
عَلَى غِيَابِنَا .

اسْتَفْسَرَتْ قَمَرُ الدِّينِ بِتَعَجُّبٍ : « أَتَقُولُ انْقَضَتْ أَيَّامٌ ؟ إِنْ
مَا مَرَّ مِنْ وَقْتٍ لَا يَتَعَدَّى بَضْعَ دَقَائِقَ ! أَنْظِرْهَا هِيَ ذِي سَاعَتِي
الرَّقْمِيَّةِ . إِنْ بِهَا تَارِيخُ الْيَوْمِ وَالسَّاعَةِ .

نَظَرَ عَلَاءُ الدِّينِ إِلَى سَاعَةِ أُخْتِهِ مُتَحِيرًا ، فَقَدْ كَانَ مَا قَالَتْهُ
صَحِيحًا ، وَتَعَجَّبَ أَنْ رَحَلَتِ الطُّوبِيلَةُ فِي الْبَحَارِ وَالْمُحِيطَاتِ لَمْ

تَسْتَعْرِقُ سِوَى دَقَائِقَ مَعْدُودَاتٍ . وَلَكِنَّهُ نَفَضَ حَيْرَتَهُ قَائِلًا : « هِيَ
بِنَا . »

وَعَرَفَ عَلَاءُ الدِّينَ ، كَمَا عَرَفَتْ أُخْتُهُ الذَّكِيَّةُ الطَّيِّبَةُ ، أَنَّ أَطْوَلَ
الْأَحْلَامِ لَا تَسْتَعْرِقُ سِوَى وَقْتٍ قَصِيرٍ يَكَادُ يُقَاسُ بِالدَّقَائِقِ ، وَرَبِّمَا
بِالثَّوَانِي .

وَلَوْحَ يَدِهِ لِعُرُوسِ الْبَحْرِ الَّتِي كَانَتْ تَسْبَحُ قَرِيبًا مِنَ الشَّاطِئِ ،
وَقَالَ لَهَا : « شُكْرًا لَكَ أَيَّتُهَا الصَّدِيقَةُ عُرُوسُ الْبَحْرِ . سَوْفَ أَظْلُ
مَدِينًا لَكَ طَوَالَ عُمْرِي . »

لَوَحَتْ لَهُ عُرُوسُ الْبَحْرِ بِذِرَاعَيْهَا ، ثُمَّ غَاصَتْ فِي الْمَاءِ .

وَسَأَلَتْ قَمَرَ الدِّينِ أَخَاهَا بِدَهْشَةٍ : « مَنْ عُرُوسُ الْبَحْرِ تِلْكَ ؟
وَكَيْفَ تَعَرَّفَتْ عَلَيْهَا ؟ وَلِمَاذَا أَنْتَ مَدِينٌ لَهَا ؟ »

ابْتَسَمَ عَلَاءُ الدِّينِ ، وَقَالَ : « هَذِهِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ ، سَوْفَ أَحْكِيهَا
لَكَ يَوْمًا مَا . »

وَسَارَ وَهُوَ يُغْنِي بِسَعَادَةٍ وَبِجَوَارِهِ أُخْتَهُ قَمَرَ الدِّينِ وَهِيَ لَا تَعِي
شَيْئًا مِمَّا حَدَّثَ .

نُورُ الْعَيْنِ

فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ ، وَفِي سَالِفِ الْعَصْرِ وَالْأَوَانِ ، عَاشَ رَاعٍ لِلْغَنَمِ
وَزَوْجَتُهُ فِي أَحَدِ الْأَوْدِيَةِ ، مَعَ قَطِيعِ صَغِيرٍ مِنَ الْغَنَمِ ، يَرْعِيَانِهِ فِي
الْأَرْضِ الْمُعْشَبَةِ حَوْلَهُمَا ، وَيَقْتَاتَانِ لِحُومِ الْمَعْزِ وَيَشْرَبَانِ مِنَ الْبَانِهَا ،
وَيَتَّخِذَانِ كُوْنًا صَغِيرًا مَسْكَنًا لَهُمَا ، صَنَعَاهُ مِنْ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ
وَسَعَفِ النَّخِيلِ ، وَكَسِيَاهُ مِنْ جُلُودِ الْمَعْزِ وَوَبَرِ الشَّيَاهِ . وَكَانَا قَانِعَيْنِ
بِمَا أَسْبَغَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقٍ .

وَحَمَلَتْ زَوْجَةُ الرَّاعِي فَأَبْتَهَلَتْ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ الْمَوْلُودُ ذَكَرًا
صَحِيحَ الْبَدَنِ ، لِيَرْعَاهُمَا فِي كِبَرِهِمَا ، وَيُؤَانِسَهُمَا فِي وَحْدَتِهِمَا .
وَأَنْجَبَتْ زَوْجَةُ الرَّاعِي طِفْلَةً جَمِيلَةً ، وَجْهَهَا مُنِيرٌ ، وَلَهَا بَشَرَةٌ
بَيَاضٌ ، وَذَاتُ شَعْرٍ أَسْوَدَ فَاحِمٍ ، وَعَيْنَاهَا خَضِرَاوَانٍ تَلْمَعَانِ كَأَنَّهُمَا
نَجْمَتَانِ مُتَلَاكِئَتَانِ ، أَوْ قِطْعَتَانِ مِنَ الْمَاسِ . ابْتَهَجَ الرَّاعِي وَزَوْجَتُهُ
بِالابْنَةِ الَّتِي وَهَبَهَا اللَّهُ لِيَاهُمَا ، وَأَسَمَيَاهَا « نُورُ الْعَيْنِ » ؛ مِنْ أَلْقَ

عَيْنَيْهَا وَبَهَاءِ مُحْيَاها . وَتَعَهَّداها بِالرَّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ
يَرَى نَوْرَ الْعُيُونِ يَهْتَفُ إِعْجَابًا : « مَا أَجْمَلُهَا مِنْ فَتَاةٍ ! وَمَا أَبْدَعَ
صَنَعَ اللَّهُ ! إِنَّ لَهَا أَجْمَلَ عَيْنَيْنِ فِي الدُّنْيَا ! »

أَتَمَّتْ نَوْرَ الْعُيُونِ الْعَامَ الْأَوَّلَ مِنْ عُمْرِهَا . وَذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَتْ
امْرَأَةُ الرَّاعِي إِلَى زَوْجِهَا صَارِخَةً بَاكِيَةً : « أَدْرِكْنِي ، يَا زَوْجِي
الْعَزِيزَ ! مَا أَعْظَمَ مُصِيبَتَنَا ، وَمَا أَكْبَرَ بَلْوَانَا ! مَا أَسْوَأَ مَصِيرِ ابْنَتِنَا ! »

سَأَلَهَا الرَّاعِي فَرْعًا : « مَاذَا حَدَّثَ ، يَا زَوْجَتِي ؟ لِمَاذَا تَصْرُخِينَ
وَتَبْكِينَ هَكَذَا ؟ »

قَالَتِ الْمَرْأَةُ بَاكِيَةً : « إِنَّهَا ابْنَتُكَ نَوْرَ الْعُيُونِ ذَاتُ الْعَيْنَيْنِ
الْخَضِرَاوَيْنِ . إِنَّهَا عَمِيَاءُ ! وَلَمْ أَكْتَشِفْ ذَلِكَ سِوَى الْآنَ . إِنَّهَا لَا
تُبْصِرُ شَيْئًا حَوْلَهَا . »

صَدِمَ الرَّاعِي وَأَسْرَعَ إِلَى طِفْلَتِهِ الصَّغِيرَةِ ، وَكَانَتْ رَاقِدَةً فِي
فِرَاشِهَا ، سَاكِنةً صَامِتَةً ، وَهِيَ تَتَطَلَّعُ بِعَيْنَيْهَا الْجَمِيلَتَيْنِ إِلَى سَقْفِ
الْكُوخِ ، دُونَ أَنْ تُحَرِّكَهُمَا فِي مَحْجَرِيهِمَا .

حَمَلَ الرَّاعِي ابْنَتَهُ ، وَلَوَّحَ بِيَدِهِ أَمَامَ عَيْنَيْهَا ، فَلَمْ تَطَّرِفْ لَهَا
عَيْنٌ ، أَوْ يَبْدُ عَلَى صَاحِبَتِهَا أَنَّهَا تُبْصِرُ بِهَا ؛ فَتَأَكَّدَ لِلرَّاعِي أَنَّ ابْنَتَهُ

وُلِدَتْ عَمِيَاءَ ، وَإِنْ لَمْ يَلَاحِظْ ذَلِكَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا . وَبَكَى
الرَّجُلُ وَتَسَاقَطَتْ مِنْ عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ حَارَّةٌ غَزِيرَةٌ ، وَاعْتَصَرَ الْحَزَنُ
قَلْبَهُ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ مُبْتَهِلًا إِلَى اللَّهِ مُنَاجِيًا : « إِلَهِي ، لَقَدْ كَانَتْ نَوْرُ
الْعُيُونِ هِبَتِكَ لَنَا ، فَإِنَّكَ (جَلَّ جَلَالُكَ) مِنْ مَنَحْتِهَا جَمَالَ
الْعَيْنَيْنِ ، وَحَرَمْتَهَا فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ نِعْمَةَ الْبَصَرِ ، فَلْتَشْمَلْهَا
بِرَحْمَتِكَ وَعِنَايَتِكَ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ . »

وَبَكَتْ زَوْجَتُهُ قَائِلَةً : « لَقَدْ تَمَنَّيْنَا عَلَى اللَّهِ (جَلَّ جَلَالُهُ) ابْنًا
أَوْ ابْنَةً يُؤْنَسُ وَحَدَّثْنَا وَيَكُونُ سَدَنًا فِي كِبَرِنَا ، فَوَهَبْنَا اللَّهُ طِفْلَةً
سَوْفَ تَحْتَاجُ لِمَنْ يَرْعَاهَا مَهْمًا كَبِيرَةً ؛ فَالضَّرِيرُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ
يَمُدُّ لَهُ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ وَالْعَوْنِ مَهْمًا تَقَدَّمَتْ سَنَةٌ . »

وَعِنْدَمَا عَلِمَ الْأَقَارِبُ وَالْجِيرَانُ بِأَنَّ نَوْرَ الْعُيُونِ ضَرِيرَةٌ ، ظَهَرَ
الْحَزَنُ عَلَيْهِمْ ، وَذَرَفُوا الدُّمُوعَ الْغَزَارَ ، وَهُمْ يَتَعَجَّبُونَ : « مَا أَغْرَبَ
الْأَمْرَ ! طِفْلَةٌ لَهَا أَجْمَلُ عَيْنَيْنِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهَا لَا تُبْصِرُ بِهِمَا !
سُبْحَانَ اللَّهِ ! »

وَمَرَّتِ الْأَعْوَامُ وَنَمَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ ، حَتَّى صَارَ عُمْرُهَا سَبْعَ
سَنَوَاتٍ ، دُونَ أَنْ تَبْرَحَ كُوخَ وَالِدَيْهَا . وَكَانَتْ كُلَّمَا أَرَادَتْ
الْخُرُوجَ مَنَعَهَا وَالِدَاهَا ؛ خَوْفًا عَلَيْهَا ، فَكَانَتْ تَنْتَحِبُ فِي صَمْتٍ ،
وَتَجْلِسُ فِي الْكُوخِ وَحِيدَةً حَزِينَةً .

وَذَاتَ يَوْمٍ هَمَسَ الرَّاعِي لَامْرَأَتِهِ قَائِلًا : « أَيُّ زَوْجَتَيِ الْعَزِيزَةِ ،
إِنَّا لَا نَعْلَمُ مَتَى تُدْرِكُنَا الْمَنِيَّةُ ؛ فَقَدْ تَكُونُ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ ،
فَعِنْدَئِذٍ نَكُونُ قَدْ ظَلَمْنَا ابْنَتَنَا وَأَشَقَيْنَاهَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي ؛ فَمِنْ
الْوَاجِبِ عَلَيْنَا أَنْ نَعْلَمَهَا كَيْفَ تَعْتَمِدُ عَلَى نَفْسِهَا . فَإِنْ كَانَ اللَّهُ
قَدْ خَلَقَهَا لَا تُبْصِرُ لِحِكْمَةٍ لَا نَدْرِيهَا ، فَهُوَ قَدْ مَنَحَهَا حَوَاسَّ كَثِيرَةً
غَيْرَ عَيْنَيْهَا ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَنْمِيَ قُدْرَاتِهَا لِلِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا ، حَتَّى يَأْتِيَ
الْيَوْمُ الَّذِي تَسْتَطِيعُ فِيهِ الْاعْتِمَادَ عَلَى نَفْسِهَا ؛ لَأَنَّا لَنْ نَدُومَ لَهَا
طَوَالَ الْعُمُرِ لِنَرْعى شُؤْنَهَا . »

أَمِنَتْ زَوْجَتُهُ الرَّاعِي قَائِلَةً : « مَعَكَ الْحَقُّ كُلُّ الْحَقِّ ، يَا زَوْجِي
الْعَزِيزُ ، وَإِنِّي لَا تَعْجَبُ كَيْفَ لَمْ أَفَكِّرْ فِي هَذَا الْأَمْرِ مِنْ قَبْلُ ؟
سَأَعْمَلُ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا عَلَى أَنْ أَجْعَلَ نَوْرَ الْعُيُونِ فِتَاءَ جَدِيرَةً
بِالاعْتِمَادِ عَلَيْهَا فِي كُلِّ شُؤْنِهَا وَشُؤْنِنَا . »

وَذَهَبَتْ إِلَى ابْنَتِهَا فِي التَّوَّ ، وَبَادَرَتْهَا قَائِلَةً : « أَيُّ بَنَاتِي
الْغَالِيَةِ ، سَتَعْتَمِدِينَ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا عَلَى نَفْسِكِ ، وَعَلَيْكِ أَنْ
تَبْذُلِي جُهْدَكَ فِي التَّعْلُمِ وَالتَّدْرِيبِ ، وَتَعُوْضِي مِنْ ظَلَامِ عَيْنَيْكِ
بِنُورِ قَلْبِكِ . »

وَصَحَبَتْ ابْنَتَهَا نَوْرَ الْعُيُونِ إِلَى الْخَلَاءِ . وَكَانَتْ الْمَرْجُ الْخَضْرَاءُ .

تُحِيطُ بِهِمَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَقَدْ هَلَّتْ بِشَائِرِ الرَّبِيعِ ، فَصَفَا الْجَوُّ
وَتَفَتَحَ الزَّهَرُ ، وَأَنْطَلَقَتِ الْأَغْنَامُ وَالشِّبَاهُ تَرْعى فِي كُلِّ مَكَانٍ .

وَوَقَفَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ مُبْتَهِجَةً وَسَطَ الْمَرْجِ ، وَهِيَ تَسْمَعُ ثَغَاءَ
الشِّبَاهِ ، فَسَأَلَتْ أُمُّهَا : « مَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي أَسْمَعُهُ ، يَا أُمِّي ؟ »

أَجَابَتْهَا أُمُّهَا : « إِنَّهَا أَصْوَاتُ الشِّبَاهِ ؛ فَالشِّبَاهُ تَغْوُ ، وَالْكِلَابُ
تَنْبَحُ ، وَالذُّنَابُ تَعْوِي ، وَالْأَبْقَارُ تَخُورُ ، وَالْدِّيُوكُ تَصِيحُ ، وَالْدَّجَاجُ
يُكْرِكِرُ ، وَالْحَمَامُ يَهْدِلُ ، وَالْعَصَافِيرُ تُشَفِّشِقُ . فَلِكُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ
صَوْتُ خَاصٌّ بِهِ ، وَعَلَيْكَ تَمْيِيزُ الْأَصْوَاتِ مِنَ الْآنَ ؛ حَتَّى تَسْتَطِيعِي
التَّعْرِيفَ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَالنَّاسِ مِنْ خِلَالِ أَصْوَاتِهِمْ . »

وَأَشْتَمَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ رَائِحَةَ ذَكِيَّةً ، فَسَأَلَتْ أُمُّهَا : « مَا هَذِهِ
الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي أَشْمُ ، يَا أُمِّي ؟ »

أَجَابَتْهَا أُمُّهَا : « إِنَّهَا رَائِحَةُ الْوَرْدِ ، وَكُلُّ نَوْعٍ لَهُ رَائِحَةٌ خَاصَّةٌ
بِهِ يُمَكِّنُ تَمْيِيزَهُ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ لِكُلِّ وَرْدَةٍ أَوْ زَهْرَةٍ شَكْلٌ مُخْتَلِفٌ
عَنِ الْآخَرِ . »

سَأَلَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ : « وَمَا هُوَ شَكْلُ الْوَرْدِ ؟ »

أَجَابَتْهَا أُمُّهَا : « إِنَّهَا ذَاتُ أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَكُلُّهَا ذَاتُ مَلَمَسٍ

رَقِيقٍ نَاعِمٍ . مِنْهَا مَا هُوَ قَلِيلُ الْأُورَاقِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ كَثِيرُهُ ، وَمِنْهَا
أَحْمَرُ اللَّوْنِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَبْيَضُ أَوْ أَصْفَرُ .

سَأَلْتُ نُورَ الْعُيُونِ أَمَّا : « وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ اللَّوْنِ الْأَحْمَرِ وَالْأَبْيَضِ
وَالْأَصْفَرِ ، وَكَيْفَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أُمَيِّزَ بَيْنَهُمَا ؟ »

أَجَابَتْهَا الْأُمُّ : « إِنَّ اللَّوْنَ الْأَحْمَرَ يُشَبِّهُ لَوْنَ الشَّفَقِ وَقَتَ
الْغُرُوبِ ، أَمَّا اللَّوْنُ الْأَبْيَضُ فَهُوَ يُشَبِّهُ الْفَجْرَ عِنْدَ بُرُوعِهِ ، وَاللَّوْنُ
الْأَصْفَرُ هُوَ لَوْنُ الشَّمْسِ عِنْدَ الْأَصِيلِ . »

فَاضَتْ الدَّمُوعُ مِنْ عَيْنِي نُورَ الْعُيُونِ ، وَقَالَتْ مُتَّحِجَةً : « وَلَكِنِّي
لَا أَعْرِفُ شَكْلَ الشَّفَقِ ، وَلَا كَيْفَ يَبْدُو الْفَجْرَ عِنْدَ بُرُوعِهِ ، وَلَا
هَيْئَةَ الشَّمْسِ عِنْدَمَا تَتَوَسَّطُ السَّمَاءَ . إِنَّنِي لَنْ أَعْرِفَ أَبَدًا كَيْفَ تَبْدُو
الْأَلْوَانُ عَلَى حَقِيقَتِهَا ! »

أَفْعَمَ الْحُزْنَ قَلْبَ الْأُمِّ ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّهَا مَهْمَا حَاوَلَتْ الْوَصْفَ
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَجْعَلَ ابْنَتَهَا تُدْرِكُ تَفَاصِيلَ أَشْيَاءَ لَا تَرَاهَا ، فَقَالَتْ
لَهَا مُوَاسِيَةً : « أَيُّ بِنْتِي ، إِنْ مَا لَا تَسْتَطِيعِينَ رُؤْيَتَهُ بِعَيْنَيْكَ يُمَكِّنُكَ
أَنْ تُدْرِكِيهِ وَتَعْرِفِيهِ بِقَلْبِكَ . فَعِنْدَمَا تُحَسِّنِينَ بِأَشْغَةِ الشَّمْسِ قَاسِيَةً
سَاخِنَةً حَوْلَكَ ، فَأَعْلَمِي أَنَّهَا تَتَوَسَّطُ السَّمَاءَ مُتَوَهِّجَةً ، وَأَنَّهَا تَبْدُو
فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَقَرَصٍ مُلْتَهَبٍ ، حِينَئِذٍ يَكُونُ وَقْتُ مُنْتَصَفِ

النَّهَارِ . وَعِنْدَمَا تَنْكَسِرُ حِدَّةُ الشَّمْسِ وَتُحَسِّنِينَ بِتَلَطُّفِ الْجَوِّ ،
وَتَسْمَعِينَ أَصْوَاتَ الْحَيَوَانَاتِ وَرُعَاتِهَا يَسُوقُونَهَا عَائِدَةً إِلَى حَظَائِرِهَا ؛
فَاعْلَمِي أَنَّهُ وَقْتُ الشَّفَقِ قَبْلَ حُلُولِ الْمَسَاءِ ، وَأَنَّ السَّمَاءَ تَخْضِبَتْ
بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ الْقَانِي ، وَأَنَّ الشَّمْسَ مُوشِكَةً عَلَى الْغُرُوبِ . أَمَّا
حِينَ تَسْتَيْقِظِينَ فِي الصُّبْحِ الْبَاكِرِ عَلَى صِيَاحِ الدِّيُوكِ حَدَادًا عَالِيًا ،
لَا يُشَارِكُهَا فِيهِ صَوْتُ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ ، فَأَعْلَمِي أَنَّ الْفَجْرَ قَدْ
بَرَعَ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَكَالَّتْ بِاتِّوَارِهِ الْفِضِيَّةِ ، وَأَنَّ الشَّمْسَ هِيَ أَيْضًا
تُوشِكُ عَلَى الشُّرُوقِ ، عِنْدَهَا يَسْتَيْقِظُ النَّاسُ مِنْ رُقَادِهِمْ وَيَتَّجِهُونَ
إِلَى أَعْمَالِهِمْ .

ابْتَسَمَتْ نُورُ الْعُيُونِ وَقَالَتْ مُبْتَهِجَةً : « الْآنَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْرِفَ مَا
هِيَ الشَّمْسُ ، وَمَتَى يَبْرُؤُ الْفَجْرُ ، وَكَيْفَ يَكُونُ الشَّفَقُ . وَيُمَكِّنُنِي
أَنْ أَتَخَيَّلَ كَيْفَ تَكُونُ أَلْوَانُهَا . »

قَالَتْ الْأُمُّ : « فَلْتَمَكِّنِي هُنَا يَا ابْنَتِي ، رَيْثَمَا أَذْهَبَ إِلَى وَالِدِكَ
فَأَسَاعِدُهُ فِي إِعَادَةِ الْأَغْنَامِ لِحَظِيرَتِهَا ؛ فَقَدْ أَوْشَكَ اللَّيْلُ أَنْ يُخَيِّمَ
عَلَى الْمَكَانِ . »

وَيَمَّمَتْ الْأُمُّ صَوْبَ زَوْجِهَا ، فَقَادَا الْأَغْنَامَ إِلَى حَظِيرَتِهَا .
وَمَكَثَتْ نُورُ الْعُيُونِ وَاقِفَةً ، تَحْسُ الْأَشْيَاءَ وَالْأَحْيَاءَ بِقَلْبِهَا ، وَتُمَيِّزُهَا

يَعْقِلُهَا ، وَتَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْحَيَوَانَاتِ وَالطَّبِيعَةِ حَوْلَهَا ، وَتَشُمُّ الطَّيِّبَ مِنْ كُلِّ الْأَلْوَانِ .

وَفَجْأَةً عَوَى ذئبٌ عَجُوزٌ قَرِيبٌ عِنْدَمَا رَأَى نُورَ الْعُيُونِ وَحِيدَةً ؛ فَصَرَخَتْ مَذْعُورَةً ، وَقَدْ أَدْرَكَتْ مِنْ صَوْتِهِ الْمُخِيفِ أَنَّهُ حَيَوَانٌ مُفْتَرَسٌ يُوْشِكُ عَلَى الْإِنْقِضَاضِ عَلَيْهَا . وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ أَحَدٌ قَرِيبٌ لِيُرِدَّ عَنْهَا هَذَا الْحَيَوَانُ الْمُفْتَرَسَ ، فَبَكَتْ نُورُ الْعُيُونِ وَهِيَ تَسْمَعُ عَوَاءَ الْوَحْشِ الَّذِي هُمْ بِالْإِنْدِفَاعِ نَحْوَهَا لِيَفْتَرِسَهَا ، وَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ الدَّفَاعَ عَنْ نَفْسِهَا ، وَمَا مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الْهَرُوبِ مِنْ وَجْهِهِ .

وَفَجْأَةً نَبَحَ كَلْبُ الْقَطِيعِ ، وَانْدَفَعَ مُهَاجِمًا الذئبَ ، فَأَنْشَبَ فِيهِ مَخَالِبَهُ ، وَعَقَرَهُ بِأَنْيَابِهِ الْحَادَّةِ ، فَعَوَى الذئبُ مُتَأَلِّمًا ، وَفَرَّ هَارِبًا .

اقْتَرَبَ الْكَلْبُ الْوَفِيُّ مِنْ نُورِ الْعُيُونِ وَأَخَذَ يَتَمَسَّحُ بِهَا ، فَاحْتَضَنَتْهُ وَرَبَّتْ عَلَيْهِ شَاكِرَةً ، وَهِيَ تَقُولُ : « لَقَدْ أَنْقَذْتَنِي مِنَ الذئبِ أَتَاهَا الْكَلْبُ الشُّجَاعُ ، وَكُنْتُ خَيْرَ مِثَالٍ لِلْوَفَاءِ ؛ لِذَلِكَ سَتَكُونُ صَدِيقِي مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا ، وَلَنْ نَفْتَرِقَ أَبَدًا ، وَسَادَعُوكَ » مُخْلِصٌ ؛ لِأَنَّكَ صَدِيقٌ مُخْلِصٌ أَنْقَذَنِي مِنَ الذئبِ .

هَرَعَ الرَّاعِي وَزَوَّجَتْهُ إِلَى نُورِ الْعُيُونِ بَعْدَ أَنْ سَمِعَا عَوَاءَ الذئبِ ، وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهَا بِسُوءٍ ، وَلَكِنَّهَا طَمَآنَتْهُمَا وَأَخْبَرَتْهُمَا



بِإِنْقَادِ الْكَلْبِ لَهَا ؛ فَحَمِدَا اللَّهَ وَعَادُوا جَمِيعًا إِلَى كَوْنِهِمْ ،
وَتَنَاوَلُوا عَشَاءَهُمْ مُعْتَبِطِينَ . وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ اعْتَادَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ أَنْ
تَخْرُجَ إِلَى الْمَرْجِ الْقَرِيبَةِ فِي صُحْبَةِ وَالِدَيْهَا وَكَلْبِهَا الْمُخْلِصِ ،
فَيَرْعَوُا الْغَنَمَ فِي الْمَنَاطِقِ الْمُحِيطَةِ . فَإِذَا مَا صَادَفَ نَوْرَ الْعُيُونِ خَطَرٌ ؛
كَأَنَّهُ يَكُونُ ثَمَّةٌ جُرْفٌ هَارٍ أَوْ مُنَحْدَرٌ تَوْشِكُ أَنْ تَسْقُطَ فِيهِ ، أَوْ أَنْ
تَكُونَ ثَمَّةٌ تُرْعَةُ أَوْ جَدُولٌ يَعْتَرِضُ طَرِيقَهَا ، يَنْبَحُ لَهَا مُخْلِصٌ مُحَذِّرًا ؛
فَتَعْرِفُ نَوْرَ الْعُيُونِ أَنَّ ثَمَّةً مَا يَعُوقُهَا ؛ فَتُغَيِّرُ طَرِيقَهَا ، أَوْ يَقُودُهَا
كَلْبُهَا نَائِحًا لِيُرْشِدَهَا إِلَى طَرِيقِ آمِنٍ .

وَلَكِنَّ وَالِدَتَهَا كَانَتْ تَحْتُهَا قَائِلَةً : « عَلَيْكَ بِالْاعْتِمَادِ عَلَى
نَفْسِكَ اعْتِمَادًا تَامًا ؛ فَرُبَّمَا يَجِيءُ وَقْتُ لَا يَكُونُ فِيهِ مُخْلِصٌ
بِجَوَارِكَ ، وَلَا وَالِدَاكَ ؛ وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اعْتِمَادُكَ عَلَى
نَفْسِكَ كَامِلًا . فَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ حَرَمَكَ مِنْ نِعْمَةِ الْبَصَرِ ، فَقَدْ
وَهَبَكَ حَوَاسٍ أُخْرَى يُمْكِنُكَ بِهَا أَنْ تُعَوِّضِي إِظْلَامَ عَيْنَيْكَ . »

وَبَدَأَتْ الْأُمُّ تُدَرِّبُ ابْنَتَهَا عَلَى اسْتِخْدَامِ أَدْنِيَّهَا فِي التَّعْرِفِ إِلَى
كُلِّ مَا حَوْلَهَا مِنْ أَصْوَاتٍ ، فَلِلطَّبِيعَةِ أَصْوَاتُهَا ، وَكَذَلِكَ لِلْحَيَوَانِ
وَالطَّيْرِ . فَصَارَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ خَبِيرَةً بِأَصْوَاتِ الْحَيَوَانِ ، مِنْ تُغَاءٍ أَوْ
نُبَاحٍ أَوْ خَوَارٍ ، وَغَدَتْ تَعْرِفُ نَوْعَ الْحَيَوَانِ مِنْ صَوْتِهِ أَوْ وَقَعَ أَقْدَامِهِ
عَلَى الْأَرْضِ ، فَلِلْجَوَادِ وَقَعَ خَاصٌّ لِحَوَافِرِهِ عَلَى الطَّرِيقِ يَخْتَلِفُ

عَنْ خُطُواتِ الْأَبْقَارِ ، أَوْ الْحَمِيرِ ، أَوْ الْكِلَابِ ، وَغَيْرِهَا مِنْ
الْحَيَوَانَاتِ .

كَمَا صَارَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ تُمَيِّزُ شَخْصِيَّاتٍ مِنْ حَوْلِهَا عَنْ طَرِيقِ
أَصْوَاتِهِمْ . وَغَدَتْ أَيْضًا عَالِمَةً بِأَنْوَاعِ الطَّيْرِ مِنْ أَصْوَاتِهَا ، سَوَاءً
كَانَ صِيَاحًا أَوْ نَعِيقًا أَوْ تَغْرِيدًا أَوْ هَدِيدًا ؛ فَتَعْرِفُ صَاحِبَ الصَّوْتِ
وَنَوْعَهُ ، بِمَجَرَّدِ سَمَاعِ صَوْتِهِ . وَصَارَتْ عَلِيمَةً بِظَوَاهِرِ الطَّبِيعَةِ
حَوْلَهَا ، وَيُمْكِنُهَا أَنْ تُحِسَّ الرِّيحَ وَالزُّوْبُعَ قَبْلَ أَنْ تَهْبُ ،
وَتَتَنَبَّأَ بِالْعَوَاصِفِ قَبْلَ أَنْ تَتَوَرَّ ، مِنْ مُقَدِّمَاتِ أَصْوَاتِهَا الَّتِي تَسْبِقُهَا
دَائِمًا .

وَمَرَّتْهَا أُمُّهَا أَيْضًا عَلَى أَنْ تَسْتَخْدِمَ حَاسَةَ الشَّمِّ فِي التَّعْرِفِ إِلَى
الْكَائِنَاتِ وَالطَّبِيعَةِ وَالْأَشْيَاءِ حَوْلَهَا ، فَعَلِمَتْهَا أَنَّ لِكُلِّ زَهْرَةٍ أَرِيحَهَا
الْمُمَيِّزَ ، وَلِكُلِّ فَاكِهَةٍ رَائِحَةَ خَاصَّةً ، وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ لَهُ
رَائِحَةٌ مُمَيِّزَةٌ أَيْضًا . وَحَتَّى الْجَوُّ الْمُحِيطُ بِهَا لَهُ رَائِحَةٌ خَاصَّةٌ تَتَغَيَّرُ
بِتَغْيِيرِ الْأَوْقَاتِ ؛ فَفِي الصَّبَاحِ يَكُونُ الْجَوُّ نَدِيًّا بِأَرِيحٍ لَطِيفٍ ، وَفِي
وَسَطِ النَّهَارِ يَمْتَلِئُ بِرَافِثَاتِ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّاسِ الَّذِينَ انْطَلَقُوا إِلَى
أَعْمَالِهِمْ ، وَفِي الْمَسَاءِ تَشِيْعُ فِي الْجَوِّ رَائِحَةُ الْغَسَقِ وَبَرْدُ اللَّيْلِ .
فَصَارَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ تَسْتَدِلُّ عَلَى الْوَقْتِ مِنْ أَرِيحِهِ ، بَلْ وَتَعْرِفُ أَنَّ
السَّمَاءَ سَتَمَطِرُ قَبْلَ سَقُوطِ الْمَطَرِ ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ رَائِحَةِ الْجَوِّ

المشبعة بالندى وبخار الماء ، ومن درجة الحرارة حولها . وتعرف
بمقدم الربيع من أريج الأزهار التي أوشكت على التفتح ، وبقدوم
الخريف من جو الجفاف المحيط به ، وأصوات سقوط أوراق
الأشجار اليابسة وتكسرها تحت قدميها .

وأيضا دربتها أمها على استخدام حاسة اللمس في تمييز الأشياء
المحيطة بها . فبدأت في التعرف إلى الطبيعة حولها ، وصحبتها
أمها في أرجاء الأرض المحيطة بهما ؛ ما بين طرق عشية أو
صخرية ورمليّة ، أو أنهار وجداول مياه ، فصارت نور العيون تميز
كل الأماكن حولها ، من لمس قدميها للأرض تحتها ، فتعرف
في أي مكان تكون ، وما هي سبيل العودة إلى منزلها ، وأي طريق
تسلك دون حاجة لمرشد أو دليل .

وذات صباح أرادت نور العيون أن تستكشف التلّ القريب الذي
يتسم بشدة الانحدار ، ولكن والدتها حذرتها قائلة : « إن تلك
المحاولة شديدة الخطورة ، فحتى المبصرون يخشون من ارتياد التلّ
وارتقائه ؛ لأنّ صخوره ملساء ، ومزالقه عديدة . وقد هوى كثيرون
أثناء محاولتهم صعوده ، ودقت أعناقهم في الحال . »

ولكن نور العيون قالت لأمها : « قد تضطّرني الظروف يوماً إلى

ارتقائه ، فدعيني ، يا أمي ، أستكشفه وأحفظ دروبه ومسالكه
وصخوره ، وأيقني من أنني سأكون شديدة الحذر في ذلك . »

وافقت أمها على ماض ، وصارت تصحبها إلى التلّ وتصعد
بها إلى قمته في حذر شديد مرات عديدة ، ونور العيون تتحسن
كل صخرة وتويع فيه ، حتى ارتسمت في ذاكرتها خريطة كاملة
لكل صخرة في ذلك التلّ المنحدر . وصارت بارعة في الصعود
إلى قمته والهبوط إلى سفحه دون خطورة ، بل واهتدت إلى نفق
سري من صنع الطبيعة داخل التلّ ، يؤدي إلى قصر الأمير المقام
فوقه .

وكانت الأم تنصح نور العيون بقولها : « عندما تعجزك حواسك
عن التعرف على ما حولك وتضييك الحيرة ، فعليك باللجوء إلى
عقلك وقلبك ؛ لكي يدلك على التصرف الصائب . »

ومرت السنوات حتى أوشكت نور العيون أن تتم عامها
العشرين ، وتقدم العمر بوالديها ، فصارت ابنتهما ترعى كل
شئونهما وتلبي كل احتياجاتهما ؛ من نظافة وماكل وملبس ، بعد
أن عادت ماهرة في كل تلك الأشياء . كما صارت ترعى الغنم
وحدها مع كلبيها مخلص ؛ فإذا ما شردت إحدى الأغنام أعادتها

نورُ العُيُونِ إِلَى الْقَطِيعِ ، بَعْدَ أَنْ تَعْرِفَ مَكَانَهَا مِنْ رَائِحَتِهَا أَوْ صَوْتِهَا . وَإِذَا مَا اقْتَرَبَ أَحَدُ الذَّنَابِ اشْتَمَّتْ رَائِحَتَهُ ، وَتَسَلَّحَتْ بِعَصَا غَلِيظَةٍ ، لِتَصُدَّهُ إِذَا مَا حَاوَلَ إِيْدَاءَهَا ، أَوْ اخْتِطَافَ أَحَدِ أَفْرَادِ الْقَطِيعِ ، حَتَّى خَشِيَتْهَا الذَّنَابُ ، وَابْتَعَدَتْ عَنْ قَطِيعِهَا ؛ لِكِبْرَةِ مَا ذَاقَتْ مِنْ ضَرْبَاتِ عَصَاهَا .

وَكُلَّمَا وَقَعَتْ أَبْصَارُ النَّاسِ عَلَى كُلِّ تِلْكَ الْمَهَارَاتِ الَّتِي بَزَّتْ بِهَا الْمُبْصِرِينَ ، رَدَّدُوا فِي تَعْجَبٍ وَدَهْشَةٍ بِالْعَيْنِ : « مَا أَعْجَبَ ذَلِكَ ! إِنَّ اللَّهَ لَا حُدُودَ لِقُدْرَتِهِ ، وَيَضَعُ سِرَّهُ فِي أَضْعَفِ مَخْلُوقَاتِهِ . »

وَاشْتَهَرَتْ نُورُ الْعُيُونِ بِمَهَارَتِهَا فِي رَعْيِ الْأَغْنَامِ فِي كُلِّ دُرُوبِ الْوَادِي ، فَهِيَ تَعْرِفُ أَمَاكِنَ الْكَلَأِ الْوَفِيرِ وَمَنَابِعَ الْمَاءِ النَّمِيرِ . وَصَارَتْ خَبِيرَةً بِأَرْضِ الْوَادِي كُلِّهَا ؛ فَتَعْرِفُ أَيْنَ تَقَعُ الْأَمَاكِنُ الْمُنْحَدِرَةُ ، أَوْ السُّهُولُ الْمُنْبَسِطَةُ ، وَأَيْنَ مَكَانُ مَنَاطِقِ الصُّخُورِ ، وَالرَّمَالِ الْمُتَحَرِّكََةِ الَّتِي تَبْتَلِعُ أَيَّ إِنْسَانٍ يَدْخُلُهَا . وَغَدَتْ تَشُقُّ طَرِيقَهَا أَفْضَلَ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ يُنْصِرُ بِعَيْنَيْهِ ؛ فَسَعِدَ وَالِدَاهَا وَحَمِدَا اللَّهَ أَنْ غَدَتْ ابْنَتُهُمَا قَادِرَةٌ عَلَى الْاعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهَا بِلَا مُعَاوَنَةٍ ، بَلْ كَانَتْ هِيَ الَّتِي تُقَدِّمُ الْمُسَاعَدَةَ لِلْآخَرِينَ .

وَذَاتَ يَوْمٍ سَمِعَتْ نُورُ الْعُيُونِ صَهِيلَ خَيُْولٍ تَأْتِي مِنْ بَعِيدٍ ، تَدُقُّ

الْأَرْضَ بِحَوَافِرِهَا ، وَتَجْرِي فَوْقَ الرَّمَالِ مُسْرِعَةً ، فَيَسْمَعُ صَلِيلَ أَسْلِحَةٍ رَاكِبِيهَا ، وَتَفِيرُ الْمُوَكَّبُ يَفْسَحُ الطَّرِيقَ أَمَامَ الْقَادِمِينَ ؛ فَأَذْرَكَتْ أَنَّ رَاكِبِي الْخَيُْولِ مِنَ الْجُنُودِ وَالْمَحَارِبِيِّينَ ، وَأَنَّ الْقَادِمَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَمِيرًا عَظِيمًا .

سَأَلَتْ نُورُ الْعُيُونِ أُمُّهَا عَنْ هُويَّةِ رَاكِبِي الْخَيُْولِ ، فَأَجَابَتْهَا بِأَنَّهُمْ جُنُودُ وَفَرَسَانُ أَمِيرِ الْبِلَادِ ، وَأَنَّهُمْ يَسْتَعِدُّونَ لِحَفْلِ عَظِيمٍ بِمُنَاسَبَةٍ الْتِصَارِ أَمِيرِ الْبِلَادِ عَلَى الْأَعْدَاءِ انْتِصَارًا سَاحِقًا ، وَرُجُوعِهِ غَانِمًا مُظْفَرًا . وَسَوْفَ يَدْعُو إِلَى حَفْلِهِ كُلُّ رِجَالِ الدَّوْلَةِ ، وَالنُّبَلَاءِ ، وَالْأَمِيرَاتِ ، وَالْأَمْرَاءِ ، وَأَبْنَاءِ الْعَائِلَاتِ الْكَرِيمَةِ مِنْ كُلِّ الْمَمَالِكِ الْمُجَاوِرَةِ .

قَالَتْ نُورُ الْعُيُونِ بِشَوْقٍ : « صِنْفِي لِي الْأَمِيرَ ، يَا أُمِّي . »
قَالَتْ الْأُمُّ : « إِنَّهُ شَابٌّ لَا مِثْلَ لَهُ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا ، فَهُوَ مَمَشُوقُ الْقَدِّ ، قَوِيُّ السَّاعِدِ . وَهُوَ أَشْجَعُ الشُّجْعَانِ ، إِذَا لَقِيَ الْأَعْدَاءَ دَحَرَهُمْ مَهْمَا زَادَ عَدَدُهُمْ . وَهُوَ وَسِيمُ الطَّلَعَةِ ، بَهِيُّ الْحَيَا ، كَأَنَّهُ الشَّمْسُ الْمَشْرِقَةُ أَوْ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ . »

فَاضَتْ عَيْنَا نُورِ الْعُيُونِ بِالْدمْعِ وَهِيَ تَرُدُّدُ : « مَا أَبْدَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ ! مَا أَجْمَلَ الْأَمِيرَ كَمَا وَصَفْتِهِ ، يَا أُمِّي ! »



وَأَنْصَرَفَتْ مَحْزُونَةً إِلَى كُوخِهَا ، وَالْدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا ،
وَقَالَتْ تُحَدِّثُ كُلَّهَا حَدِيثًا ذَا شُجُونٍ : « آه يَا صَدِيقِي مُخْلِص ! لَوْ
لَمْ أَكُنْ فَتَاةً فَقِيرَةً عَمِيَاءَ ؛ لَدَعَانِي الْأَمِيرُ إِلَى حَفْلِهِ ، كَمَا دَعَا
الْأَمِيرَاتِ وَأَبْنَاءَ الْعَائِلَاتِ الْكَرِيمَةِ . وَلَكِنْ مَنْ كَانَتْ مِثْلِي لَا
يُمْكِنُ لِأَمِيرٍ أَنْ يَدْعُوَهَا إِلَى حَفْلِهِ ! »

وَفَاضَتْ عَيْنَاهَا الْخَضِرَاوَانِ بِالْدَّمْعِ الْغَزِيرِ ، فَتَأَلَّفَتَا كَأَنَّهُمَا دُرَّتَانِ
أَوْ نَجْمَتَانِ ، فَزَقَزَقَتِ الْعَصَافِيرُ الْقَرِيبَةُ فِي شَجْنٍ ، وَهَدَلِ الْحَمَامُ
بِصَوْتِ حَزِينٍ شَجِيٍّ ، وَحَتَّى مُخْلِصُ الْكَلْبِ الْوَفِيُّ نَبَحَ بِصَوْتٍ
مُتَقَطِّعٍ كَأَنَّهُ الْأَنِينُ .

وَعِنْدَ الْغُرُوبِ بَدَأَتْ تَهَلُّ مَوَاقِبُ النُّبَلَاءِ وَالْأَمِيرَاتِ صَوْبَ قَصْرِ
الْأَمِيرِ ، الَّذِي يَقَعُ فَوْقَ التَّلِّ الْقَرِيبِ ، وَارْتَدَتْ كُلُّ أَمِيرَةٍ ثِيَابَهَا ،
وَتَحَلَّتْ بِأَعْلَى حُلِيِّهَا ، وَتَعَطَّرَتْ بِأَذْكَى عَطُورِهَا ، فَبَدَتْ كُلُّ
مِنْهُنَّ كَالْوَرْدَةِ النَّاصِرَةِ الْفَوَاحَةِ ، أَوْ النُّجْمَةِ الْمُتَأَلِّفَةِ السَّاطِعَةِ .

وَاشْتَمَّتْ نَوْرُ الْعُيُونِ أَرِيحَ الْأَمِيرَاتِ الْحَسَنَاتِ وَبَنَاتِ الْعَائِلَاتِ
الْكَرِيمَةِ ، وَسَمِعَتْ ضَحِكَاتِهِنَّ فَعَرَفَتْ أَنَّهُنَّ يَقْصِدْنَ قَصْرَ الْأَمِيرِ
مَعَ ذَوِيهِنَّ ، دَاخِلَ الْعَرَبَاتِ الَّتِي تَجْرِهَا الْخُيُولُ الْمُطَهَّمَةُ ، لِحُضُورِ
الْحَفْلِ .

وَصَاحَتْ إِحْدَى الْأَمِيرَاتِ فِي نَوْرِ الْعُيُونِ حِينَ رَأَتْهَا تَقْتَرِبُ
مِنْهَا : « ابْتَعِدِي أَيْتَهَا الْفَتَاةُ ؛ كَيْلَا تَذْهَمُكَ عَرَّتِي ؛ فَتُوْخِرْنِي عَنْ
الدَّهَابِ إِلَى حَفْلِ الْأَمِيرِ ! »

رَنَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ إِلَى مَصْدَرِ صَوْتِ الْأَمِيرَةِ وَلَمْ تُعَقِّبْ بِشَيْءٍ .
وَتَأَمَّلَتْ الْأَمِيرَةُ نَوْرَ الْعُيُونِ بِدَهْشَةٍ وَسَأَلَتْهَا : « وَلَكِنْ مَنْ أَنْتِ أَيْتَهَا
الْفَتَاةُ ؟ وَلِمَ تَنْظُرِينَ إِلَيَّ هَكَذَا بِمِثْلِ هَذِهِ النَّظَرَاتِ ؟ »

أَجَابَهَا سَائِقُ عَرَّتِهَا : « إِنَّهَا فَتَاةٌ ضَرِيرَةٌ ، يَا سَيِّدَتِي ، تُدْعَى نَوْرُ
الْعُيُونِ . »

ضَحِكَتِ الْأَمِيرَةُ بِسُخْرِيَّةٍ وَقَالَتْ : « فَتَاةٌ عَمِيَاءُ وَأَسْمُهُا نُورُ
الْعُيُونِ ! هَذَا أَعْجَبُ مَا سَمِعْتُ وَرَأَيْتُ ! »

وَأُطْلِقَتْ ضَحْكَةً سَاخِرَةً مُجَلِّجَةً ، وَهِيَ تَضَعُ يَدَهَا عَلَى عِقْدِ
اللُّؤْلُؤِ الْأَسْوَدِ النَّادِرِ النَّفِيسِ ، الَّذِي يَزِينُ جِيدَهَا ، فَضَحِكَتْ بَاقِي
الْأَمِيرَاتِ الْحَسَنَاتِ سَاخِرَاتٍ ، وَابْتَعَدْنَ بِعَرَبَاتِهِنَّ حَتَّى لَا يَتَأَخَّرْنَ
عَنْ مَوْعِدِ حَفْلِ الْأَمِيرِ .

تَرَفَّرَتْ عَيْنَا نُورِ الْعُيُونِ بِالْذُمُوعِ ، فَتَأَلَّفَتَا بِالنُّورِ كَانَهُمَا نَجْمَتَانِ
تُشِعَّانِ فِي الظُّلَامِ ، ثُمَّ قَالَتْ تُحَادِثُ كَلْبَهَا مُخْلِصٌ : « مَا رَأَيْكَ ،
يَا كَلْبِي الْعَزِيزُ ؟ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَشْهَدَ حَفْلَ أَمِيرِ الْبِلَادِ فِي قَصْرِهِ
الْمَقَامِ فَوْقَ التَّلِّ . »

نَبَحَ الْكَلْبُ كَأَنَّهُ يَسْتَفْسِرُ عَنْ كَيْفِيَّةِ مُشَاهَدَةِ الْحَفْلِ ، وَهِيَ
لَيْسَتْ مَدْعُوَّةٌ ؛ فَأَجَابَتْهُ نُورُ الْعُيُونِ : « سَوْفَ نَتَسَلَّلُ إِلَى الْقَصْرِ عَنْ
طَرِيقِ نَفَقٍ فِي التَّلِّ يُؤَدِّي إِلَى سِرْدَابٍ دَاخِلِ الْقَصْرِ ، لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ
بِأَمْرِهِ ؛ فَقَدْ اكْتَشَفْتُهُ مُصَادَفَةً ، عِنْدَمَا كُنْتُ أُرْتَقِي التَّلَّ ذَاتَ يَوْمٍ .
وَهَكَذَا ، يَا مُخْلِصُ ، تَرَانِي مُصِرَّةً عَلَى الذَّهَابِ إِلَى هُنَاكَ ؛ فَإِنِّي
أَتَوَقَّعُ إِلَى حُضُورِ الْحَفْلِ . وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِي عَيْنَانِ لِأَرَى الْأَمِيرَ ،
فَسَوْفَ أَكْتَفِي بِسَمَاعِ صَوْتِهِ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ لَهُ صَوْتًا رَخِيمًا سَاخِرًا ،

وَهَذَا شَيْءٌ طَبِيعِيٌّ لِمَنْ هُوَ فِي مِثْلِ شَجَاعَتِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَذِكَايِهِ
وَحِكْمَتِهِ . »

نَبَحَ الْكَلْبُ كَأَنَّهُ يُوَافِقُ نُورَ الْعُيُونِ عَلَى مَا تَقُولُ ، وَسَارَ الْاِثْنَانِ
صَوْبَ التَّلِّ حَيْثُ يَقَعُ قَصْرُ الْأَمِيرِ ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِ دَرَجَاتٌ نُحِتَتْ فِي
التَّلِّ . وَهَبَطَ الْمَسَاءُ عَلَى الْمَكَانِ ، وَحَلَّتِ الْعَتَمَةُ فِي كُلِّ الْأَرْجَاءِ ،
وَلَكِنْ نُورُ الْعُيُونِ لَمْ تَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَى الضُّوءِ لِتَعْرِفَ طَرِيقَهَا ؛ فَقَدْ
كَانَتْ عَلِيمَةً بِمَسَالِكِ الطَّرِيقِ كَأَنَّهُا تَرَاهَا ، وَيُمْكِنُهَا السَّيْرُ فِيهَا
بِلَا مَشَقَّةٍ أَوْ دَلِيلٍ ، سِوَاكَ كَانَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا .

وَبَلَغَتْ نُورُ الْعُيُونِ وَكَلْبَهَا مُخْلِصٌ قِمَّةَ التَّلِّ الْعَالِي الَّذِي يَقَعُ
قَصْرُ الْأَمِيرِ فَوْقَهُ ، وَكَانَ الْوُصُولُ إِلَى فُتْحَةِ السَّرْدَابِ فِي مُنْتَصَفِ
التَّلِّ يَتَطَلَّبُ صُعُودًا حَدِيدًا ؛ لِانْحِدَارِ التَّلِّ ، وَصُعُوبَةِ صُخُورِهِ
وَوُعُورَتِهَا ، وَالظُّلَامِ الْمُحِيطِ بِالْمَكَانِ . وَلَكِنْ نُورُ الْعُيُونِ لَمْ تَخْشَ أَيًّا
مِنْ كُلِّ ذَلِكَ ؛ لِحَذَقِهَا فِي مَعْرِفَةِ تَفَاصِيلِ الْمَكَانِ ، وَدُرْبَتِهَا عَلَى
صُعُودِ وَهْبُوطِ التَّلِّ مِنْ قَبْلُ مِرَارًا وَتَكَرُّرًا ، حَتَّى حَفِظَتْ مَوْضِعَ
كُلِّ صَخْرَةٍ فِيهِ .

التَّفَتَّتْ نُورُ الْعُيُونِ لِكَلْبِهَا ، وَخَاطَبَتْهُ مُحَدَّرَةً : « أَنْتَبِهْ فِي
صُعُودِكَ ، يَا مُخْلِصُ ، وَإِلَّا زَلَّتْ قَدَمُكَ أَوْ جَرَحَ بَدَنُكَ . إِنَّا لَسْنَا

مِنَ الْمَدْعُومِينَ لِحَفْلِ الْأَمِيرِ ؛ وَلِذَا لَا نَسْتَطِيعُ اجْتِنَاءَ الطَّرِيقِ الْأَمِينِ
مِنْ قَوْقِ الدَّرَجَاتِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْأَمِيرُ وَضِيؤُهُ لَصُغُودِ التَّلِّ مِنْ
الْأَمَامِ ، حَتَّى يَكُونَ فُرْسَانُ الْأَمِيرِ وَحَاشِيَتُهُ فِي اسْتِقْبَالِنَا وَتَحِيَّتِنَا .

أَجَابَهَا كَلْبُهَا نَابِحًا ، كَأَنَّمَا يُحَدِّثُهَا هُوَ الْآخَرُ مِنَ الشَّيْءِ
نَفْسِهِ ، وَأَنْ تَكُونَ فِي ذَلِكَ مِثْلَهُ . وَاسْتَطَاعَ الْاِثْنَانِ ارْتِقَاءَ التَّلِّ مِنْ
النَّاحِيَةِ الْخَلْفِيَّةِ بِلاَ مَشَقَّةٍ ، حَتَّى وَصَلَا مَدْخَلَ النَّفْقِ الْمُوْدِّي إِلَى
سِرْدَابِ الْقَصْرِ ، فَزَحَفَا فِيهِ وَسَطَ الظُّلَامِ حَتَّى بَلَّغَا مَدْخَلَ الْقَصْرِ .
وَتَنَاهَتْ إِلَى أَسْمَاعِهِمَا أَصْوَاتُ الْاِحْتِفَالِ مِنَ الدَّاخِلِ ، وَحَدِيثُ
الْفُرْسَانِ وَالنُّبَلَاءِ وَكِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ . وَسَمِعَتْ نَوْرَ الْعُيُونِ ضَحِكَاتِ
الْحَسَنَاتِ ، وَأَصْوَاتَ وَقَعِ نِعَالِهِنَّ عَلَى الْأَرْضِ ، وَخَفِيفَ أَثْوَابِهِنَّ
الْغَالِيَةِ عَلَى الْبُسْطِ وَالْقُرْشِ ، وَاشْتَمَّتْ عَبِيرَ عَطُورِهِنَّ الثَّمِينَةِ يَسْبَحُ
فِي الْمَكَانِ ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تُحْصِيَهُنَّ دُونَ مَشَقَّةٍ ، وَأَنْ تُقَدِّرَ عُمْرَ
كُلِّ وَاحِدَةٍ ، مِنْ رَيْنِ صَوْتِهَا .

اقْتَرَبَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ مِنْ قَاعَةِ الْاِحْتِفَالِ ، وَكَانَتْ مُضَاءَةً بِآلَافِ
الْمَشَاعِلِ وَالشُّمُوعِ الَّتِي أَحَالَتِ الْمَكَانَ إِلَى نَهَارٍ ، وَالْخَدَمُ يَحْمِلُونَ
الشَّرَابَ وَالْعَصَائِرَ وَمَاءَ الْوَرْدِ ، وَيَمْرُونَ بِهَا بَيْنَ الْحَاضِرِينَ .

رَنَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ بِعَيْنَيْهَا مِنْ بَيْنِ سَتَائِرِ الْبَابِ ؛ فَأَدْرَكَتْ كُلَّ

مَا يَدُورُ فِي الْقَاعَةِ بِعَقْلِهَا وَاحْسَاسِهَا ، وَهَمَسَتْ لِكَلْبِهَا : « إِنِّي
أَشْعُرُ بِكُلِّ مَا يَجْرِي هُنَا ، يَا كَلْبِي الْعَزِيزُ ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهُ
لَكَ ؛ فَهَذِهِ الْقَاعَةُ فَسِيحَةٌ لِلْغَايَةِ لِاسْتِيعَابِهَا كُلَّ هَذَا الْكَمِّ
الْمُحْتَشِدِ ، وَاجْتِلَاطِ الْأَصْوَاتِ الْكَثِيرَةِ بَيْنَ بَعْضِهَا بَعْضًا . وَهِيَ مُضَاءَةٌ
بِشُمُوعٍ وَمَشَاعِلٍ هَائِلَةٍ ، وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْوَهَجُ الشَّدِيدُ الَّذِي
أَشْعُرُ بِهِ يَلْفُ الْمَكَانَ . وَلَا بُدَّ أَنْ الْخَدَمُ يَقُومُونَ بِتَوَزِيعِ أَقْدَاحِ
الشَّرَابِ عَلَى الْمَدْعُومِينَ وَالْمَدْعُوتَاتِ ؛ فَهَذَا مَا تَقْتَضِيهِ أَصُولُ الضِّيَافَةِ
لَأَمِيرٍ كَرِيمٍ . كَمَا أَنَّي أَشْمُ رَائِحَةَ الْعَصَائِرِ الْفَاخِرَةِ . »

وَفَجْأَةً سَادَ الصَّمْتُ الْمَكَانَ ، حِينَ هَلَّ أَمِيرُ الْبِلَادِ ، فَصَمَّتْ
الْحَاضِرُونَ إِجْلَالًا وَامْتَنَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ . وَانْفَتَحَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ إِلَى
كَلْبِهَا ، وَقَالَتْ هَامِسَةً : « لَا بُدَّ أَنْ الْأَمِيرَ دَخَلَ الْقَاعَةَ ؛ فَمِثْلُ
هَؤُلَاءِ الْأَثْرِيَاءِ وَالنُّبَلَاءِ لَا يَصْمَتُونَ إِكْبَارًا ، إِلَّا إِذَا حَلَّ بِالْمَكَانِ مَنْ
هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُمْ شَأْنًا . »

وَسَمِعَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ صَوْتَ الْأَمِيرِ وَهُوَ يَقُولُ : « مَرْحَبًا
بِالْحَاضِرِينَ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالنُّبَلَاءِ وَالْأَمِيرَاتِ الْحَسَنَاتِ . »

اهْتَزَّتْ نَوْرُ الْعُيُونِ عِنْدَ سَمَاعِهَا صَوْتَ الْأَمِيرِ ؛ فَقَدْ كَانَ صَوْتًا
قَوِيًّا يَشِي بِرُجُولَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ وَاعْتِزَازِهِ بِنَفْسِهِ ، كَمَا كَانَ هُدُوءَ نَبْرَاتِهِ
وَوُضُوحَهَا يَدْلُانِ عَلَى كَمَالِ أَخْلَاقِهِ ، وَحِكْمَتِهِ وَاعْتِدَادِهِ بِنَفْسِهِ .

وَتَرَقَّرَتْ الدُّمُوعُ فِي عَيْنِي نَورَ الْعُيُونِ ، وَهَزَّ صَوْتُ الْأَمِيرِ
كِيَانَهَا ، فَقَالَتْ لِنَفْسِهَا : « إِنَّ صَوْتَ الْأَمِيرِ يُنَبِّئُ بِمَا تَخِيلَتْهُ فِيهِ ؛
شَابًّا يَافِعًا حَكِيمًا . لِيَتَنِي أَسْتَطِيعَ أَنْ أَبْصِرَ فَأَرَاهُ ! »

وَفَجْأَةً لَمَحَتْ إِحْدَى الْأَمِيرَاتِ نَورَ الْعُيُونِ ، وَكَانَتْ هِيَ نَفْسُهَا
الَّتِي صَادَفَتْهَا فِي الطَّرِيقِ ، ذَاتَ عِقْدِ اللُّؤْلُؤِ الْأَسْوَدِ ؛ فَصَاحَتْ فِيهَا
غَاضِبَةً : « آيَتُهَا الْعَمِيَاءُ ! هَلْ بَلَغَتْ بِكِ الْجُرْأَةُ حُضُورَ حَفَلِ
الْأَمِيرِ بِدُونِ إِذْنِهِ ؟ وَكَيْفَ سَمَحَ لَكَ حُرَّاسُ الْقَصْرِ بِالْدُخُولِ ؟ »

جَفَلَتْ نَورَ الْعُيُونِ عِنْدَ سَمَاعِهَا صَوْتَ الْأَمِيرَةِ الْحَسَنَاءِ ، وَكَانَتْ
مُدْبِرَةً ، وَكَلَّبَهَا خَلْفَهَا ، نَحْوَ فُتْحَةِ السَّرْدَابِ الْخَفِيِّ . وَصَاحَ قَائِدُ
الْحُرَّاسِ فِي جُنُودِهِ : « اقْبِضُوا عَلَى تِلْكَ الْمُتَسَلِّلَةِ وَاسْجُنُوهَا ؛ فَلَعَلَّهَا
جَاءَتْ لِإِيْذَاءِ الْأَمِيرِ ! »

انْدَفَعَ الْجُنُودُ خَلْفَ نَورِ الْعُيُونِ وَلَكِنَّهَا سَبَقَتْهُمْ مَعَ كَلْبِهَا ،
وَاجْتَازَتْ السَّرْدَابَ الْخَفِيَّ الَّذِي لَا يَعْلَمُ بِأَمْرِهِ أَحَدٌ ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ
مُغَادَرَةِ الْقَصْرِ دُونَ أَنْ يَلْحَقَ بِهَا جُنُودُ الْأَمِيرِ ، أَوْ يَعْرِفُوا كَيْفَ
تَسَلَّلَتْ إِلَى الْمَكَانِ ، وَكَيْفَ خَرَجَتْ مِنْهُ . وَهَبَطَتْ نَورَ الْعُيُونِ التَّلَّ
وَهِيَ تُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ ، وَقَالَتْ لِنَفْسِهَا مِنْ خِلَالِ دُمُوعِهَا : « إِنِّي
لَسْتُ سِوَى رَاعِيَةٍ غَنَمٍ فَقِيرَةٍ عَمِيَاءَ ، وَلَيْسَ لِي الْحَقُّ حَتَّى فِي رُؤْيَا

الْأَمِيرِ أَوْ حُضُورِ حَفَلِهِ ! »

وَزَادَ نَحِيْبُهَا وَارْتَجَفَ كُلُّ بَدَنِهَا مِنْ فَرْطِ حُزْنِهَا . وَجَلَسَتْ فَوْقَ
صَخْرَةٍ أَسْفَلَ التَّلِّ وَبَجَوَّارِهَا كَلَّبَهَا ، وَقَدْ سَادَ الصَّمْتُ الْحَزِينُ
الْمَكَانَ ، وَكَأَنَّ كُلَّ الْكَائِنَاتِ تُشَارِكُهَا مَشَاعِرَهَا الشَّجِيَّةَ .

وَإِنَّ هِيَ سِوَى لِحَظَاتٍ حَتَّى سَمِعَتْ نَورَ الْعُيُونِ أَصْوَاتًا بَعِيدَةً
مَكْتُومَةً ؛ أَصْوَاتَ جِيَادٍ رُبَطَتْ حَوَافِرُهَا بِالْقُمَاشِ حَتَّى لَا يَكُونَ
لَوْقَعِهَا دَوِيٌّ ، وَكُمِّمَتْ أَفْوَاهُهَا حَتَّى لَا يَكُونَ لِصَهِيلِهَا صَوْتُ .
وَأَخْفَى رَاكِبُوهَا أَسْلِحَتَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لِقَعْقَعَتِهَا
رَنِينَ .

وَلَكِنَّ نَورَ الْعُيُونِ اسْتَطَاعَتْ سَمَاعَ الْأَصْوَاتِ الْخَافَةِ الْمَكْتُومَةِ ،
رَغْمَ كُلِّ الْاِحْتِيَاظَاتِ الَّتِي اتَّخَذَهَا أَصْحَابُهَا ، لِسَمْعِهَا الْحَادِّ ،
وَقَدَّرَتْهَا عَلَى تَمْيِيزِ الْأَصْوَاتِ مَهْمَا ضَعُفَتْ وَخَفَّتْ .

وَاقْتَرَبَتْ الْجِيَادُ بِرَاكِبِيهَا فِي سُكُونٍ ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ ضَخْمًا ،
يَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ ، وَقَدْ اسْتَعَدُّوا بِكُلِّ الْأَسْلِحَةِ وَالْعَتَادِ ، وَاتَّشَحُّوا
بِالْمَلَابِيسِ السُّودَاءِ ، لَا يَبِينُ مِنْهُمْ شَيْءٌ فِي الظُّلَامِ . وَاقْتَرَبُوا
مُتَسَلِّلِينَ لَا يَشْعُرُ بِهِمْ إِنْسَانٌ ، وَتَحَدَّثُوا هَمْسًا كَثِيلًا يَسْمَعُهُمْ
مَخْلُوقٌ .

يَتَّبِعُهُ الْأَمِيرُ لِمَا يَدْبُرُهُ الْأَعْدَاءُ ؛ فَإِنَّهُ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ .

هَمَسَتْ نُورُ الْعُيُونِ لِكَلْبِهَا : « هَيَّا يَا مُخْلِصُ ؛ لِنَحْذِرِ الْأَمِيرَ مِنَ
الْخَطَرِ الدَّاهِمِ الْمُحْدِقِ بِهِ . إِنَّهُ لَمِنْ حَسَنِ الْحِظِّ أَنْ الظُّلَامَ لَمْ

وَهَمَسَ زَعِيمُ الْمُتَسَلِّلِينَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ : « حَاصِرُوا التَّلَّ مِنْ
الْأَمَامِ ، وَامْنَعُوا صُعُودَ أَوْ هُبُوطَ أَيِّ كَائِنٍ ؛ حَتَّى نَقْبِضَ عَلَى
الْأَمِيرِ وَكُلِّ قَادَتِهِ وَعَظْمَاءِ بِلَادِهِ وَفُرْسَانِهِ وَهُمْ مُحَاصِرُونَ فِي
قَصْرِهِ . وَمَنْ حَاوَلَ مِنْهُمْ النُّزُولَ لِمُلَاقَاتِنَا صَرَعْتَهُ سِهَامُنَا قَبْلَ
سُيُوفِنَا ؛ فَنَحْنُ أَسْفَلَ التَّلِّ فِي مَوْقِعِ أَحْصَنِ ، وَالْأَمِيرُ وَكُلُّ رِجَالِ
دَوْلَتِهِ وَفُرْسَانِهِ فِي الْقَصْرِ أَشْبَهُ بِالْفَارِ الَّذِي وَقَعَ فِي فَخٍّ أَوْ مِصِيدَةٍ . »

قَالَ أَحَدُ الْجُنُودِ : « إِنَّهَا لِفِكْرَةٍ رَائِعَةٍ أَيُّهَا الزَّعِيمُ ؛ فَقَدْ أَعْرَيْنَا
الْأَمِيرَ بِتَظَاهَرِنَا بِالْهَزِيمَةِ وَالْانْسِحَابِ أَمَامَهُ ، فَعَادَ مُنْتَشِيًا مَسْرُورًا
بِالنَّصْرِ ، فِي حِينٍ زَحَفْنَا نَحْنُ وَعَبَّرْنَا حُدُودَ الْبِلَادِ فِي خَفِيَةٍ ، وَدُونَ
أَنْ يَشْعُرَ بِنَا إِنْسَانٌ ؛ لِنُحَاصِرَ الْأَمِيرَ فِي قَصْرِهِ وَهُوَ يَحْتَفِلُ بِنَصْرِهِ ،
فَنَاسِرُهُ أَوْ نَقْتَلُهُ هُوَ وَكُلُّ فُرْسَانِهِ وَرِجَالِ دَوْلَتِهِ ، وَنَسْتُولِي عَلَى الْبِلَادِ
وَنَنْهَبُ كُلَّ خَيْرَاتِهَا ، وَنَذِيقُ أَهْلَهَا مِنَ الْعَذَابِ الْوَانَا دُونَ أَنْ يَجْرُرُوا
إِنْسَانٌ عَلَى الْوُقُوفِ فِي مُوَاجَهَتِنَا . »

تَرَاجَعَتْ نُورُ الْعُيُونِ مَذْهُولَةً مِنْ هَوْلٍ مَا سَمِعَتْ ، وَعَرَفَتْ أَنَّ
أُولَئِكَ الْمُتَسَلِّلِينَ مِنَ الْأَعْدَاءِ قَدْ خَدَعُوا الْأَمِيرَ بِحِيلَةٍ مَآكِرَةٍ ، بَعْدَ
تَظَاهَرِهِمْ بِالْانْسِحَابِ أَمَامَهُ ، ثُمَّ تَسَلَّلُوهُمْ إِلَى دَاخِلِ الْبِلَادِ
لِحِصَارِهِ ، وَأَنَّهُمْ مُوشِكُونَ عَلَى أَسْرِهِ وَقَتْلِهِ هُوَ وَكُلُّ رِجَالِ الدَّوْلَةِ
وَبَنَاتِهَا وَفُرْسَانِهَا ، بَعْدَ حِصَارِهِمْ فِي الْقَصْرِ فَوْقَ التَّلِّ . فَإِنْ لَمْ



يَكْشِفُنَا لِهَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ ، وَأَعْمَى عُيُونَهُمْ عَنَّا ، فِي حِينِ أَنَّنَا
كَشَفْنَاهُمْ وَسَمِعْنَاهُمْ . وَلَكِنْ حَذَارُ مِنَ النَّبَاحِ ، وَإِلَّا عَرَفُوا
مَكَانَنَا !

وَتَسَلَّلَتْ نَوْرَ الْعُيُونِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَسُرْعَةِ الرِّيحِ ، وَخَلَفَهَا كَلْبُهَا
مُخْلِصٌ ، وَتَسَلَّقَا التَّلَّ مِنْ الْخَلْفِ صَاعِدَيْنِ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى النَّفَقِ ،
دُونَ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُمَا الْأَعْدَاءُ ؛ لِدِرَايَتِهِمَا التَّامَّةِ بِالْمَكَانِ .

وَصَلَتْ نَوْرَ الْعُيُونِ وَكَلْبُهَا إِلَى فُتْحَةِ النَّفَقِ ، فَزَحَفَا دَاخِلَ
السَّرْدَابِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْقَصْرِ . وَكَانَ جُنُودُ الْأَمِيرِ قَدْ انْصَرَفُوا عَنْ
الْحِرَاسَةِ دُونَ أَنْ يَكْتَشِفُوا فُتْحَتَهُ الْخَفِيَّةَ ، بَعْدَ يَأْسِهِمْ مِنَ الْعُثُورِ عَلَى
نَوْرِ الْعُيُونِ .

تَسَلَّلَتْ نَوْرَ الْعُيُونِ عَبْرَ السَّرْدَابِ ، وَوَقَفَتْ فِي نِهَائِهِ تَتَنَصَّتُ ،
وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْمَعْ صَوْتَ إِنْسَانٍ ، فَأَمِنَتْ وَأَطْمَأْنَنْتْ ، وَاتَّجَهَتْ إِلَى
قَاعَةِ الْإِحْتِفَالِ . وَكَانَ الصَّخْبُ وَالضَّجِيجُ فِيهَا يُصِمَّانِ الْأَذَانَ ،
وَالْجَمِيعُ فِي حُبُورٍ وَهُمْ يَتَنَاولُونَ الطَّعَامَ ، غَافِلِينَ عَمَّا يَتَرَبَّصُ بِهِمْ
مِنْ أَخْطَارٍ .

سَمِعَتْ نَوْرَ الْعُيُونِ وَقَعَ الْمَلَاعِقِ وَالْكُتُوسِ عَلَى الصُّحُونِ ،
وَصَوْتَ الْأَفْوَاهِ وَهِيَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ ، فَقَالَتْ لِكَلْبِهَا هَامِسَةً : « إِنَّ

الْجَمِيعَ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَهُمْ مُنْشَرَحُونَ ؛ فَيَجِبُ أَلَّا نَعْكُرَ صَفْوَهُمْ
الْآنَ بِإِبْلَاغِهِمُ الْأَنْبَاءَ السَّيِّئَةَ ، وَلِنَتَنَظَّرَ حَتَّى يَفْرَغَ الْأَمِيرُ مِنْ تَنَاوُلِ
طَعَامِهِ ثُمَّ نَقُمَ بِتَحْذِيرِهِ ؛ فَإِنَّ إِخْبَارَ النَّاسِ بِالْأُمُورِ السَّيِّئَةِ وَهُمْ
يَأْكُلُونَ أَمْرٌ لَا يَلِيقُ .

هَزَّ مُخْلِصٌ ذَيْلَهُ ، كَأَنَّهُ يُصَدِّقُ عَلَى مَا قَالَتْهُ صَاحِبَتُهُ .

وَفَجْأَةً لَمَحَ قَائِدُ الْحَرَسِ نَوْرَ الْعُيُونِ وَهِيَ مُخْتَبِئَةٌ خَلْفَ السِّتَائِرِ ،
فِي مَدْخَلِ الْقَاعَةِ ، فَاقْتَرَبَ مِنْهَا مُحَازِرًا لِيَقْبِضَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَمْسَكَ
بِمِعْصَمِهَا وَصَاحَ فِيهَا : « لَقَدْ قَبِضْتُ عَلَيْكَ أَخِيرًا أَيَّتُهَا الْمُتَسَلِّلَةُ ،
وَلَسَوْفَ يَكُونُ مَصِيرُكَ أَسْوَأَ مَصِيرٍ . »

وَحِينَ سَمِعَ الْحُضُورُ صِيَاحَ قَائِدِ الْحَرَسِ ، التَفَتُوا بِدَهْشَةٍ ،
فَشَاهَدُوا نَوْرَ الْعُيُونِ وَهِيَ تُحَاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنْ قَبْضَةِ الْقَائِدِ .
وَصَاحَتِ الْأَمِيرَةُ ذَاتُ عِقْدِ اللُّؤْلُؤِ الْأَسْوَدِ : « إِنَّهَا الْفَتَاةُ الْعَمِيَاءُ !
يَا لِلْفَتَاةِ الْبَائِسَةِ الَّتِي تُصِرُّ عَلَى حُضُورِ حَفَلَاتِ الْأَمْرَاءِ وَإِفْسَادِهَا !
فَلْتَضَعُهَا فِي السِّجْنِ أَيُّهَا الْقَائِدُ ؛ عِقَابًا لَهَا عَلَى مَا فَعَلَتْ . »

أَوْشَكَ قَائِدُ الْحَرَسِ أَنْ يُطِيعَ أَمْرَ الْأَمِيرَةِ ، غَيْرَ أَنْ إِشَارَةَ الْأَمِيرِ
كَفَّنَتْهُ عَنْ أَنْ يَفْعَلَ .

نَهَضَ الْأَمِيرُ مِنْ مَقْعَدِهِ وَاقْتَرَبَ مِنْ نَوْرِ الْعُيُونِ ، وَتَأَمَّلَ وَجْهَهَا

ساحقاً .

رَدْتُ نَوْرَ الْعُيُونِ : « لَقَدْ تَظَاهَرُوا بِالْهَزِيمَةِ أَمَامَكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛
حَتَّى يَتِمَكَّنُوا مِنْ خِدَاعِكَ وَغُبُورِ الْحُدُودِ وَنِقَاطِ التَّفْتِيشِ بِسُهُولَةٍ ،
فِيحَاصِرُوا قَصْرَكَ بِكُلِّ مَنْ فِيهِ . وَقَدْ احْتَاطَ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ الْمَاكِرُونَ
لِلْأَمْرِ ، فَرَبَطُوا أَقْوَاهُ جِيَادِهِمْ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لِصَهْلِيلِهَا صَوْتٌ ،
وَأَخْفَوْا أَسْلِحَتَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لِقَعْقَعَتِهَا رَيْنٌ يَنْمُ
عَلَيْهَا . وَسَاعَدَهُمْ انْتِشَارُ اللَّيْلِ وَخَبْثُ تَدْبِيرِهِمْ عَلَى غُبُورِ نِقَاطِ
الْحِرَاسَةِ وَالتَّفْتِيشِ دُونَ أَنْ يُحِسَّ بِهِمْ إِنْسَانٌ . إِنَّهُمْ قَوْمٌ مَاكِرُونَ لَمْ
يَقْدِرُوا عَلَى مُوَاجَهَتِكَ وَهَزِيمَتِكَ فِي شَجَاعَةٍ ؛ فَلَجُّوا إِلَى الْحِيلَةِ
الدَّنِيئَةِ . »

ازدادت دهشة الأمير ، وسألها : « وَلَكِنْ كَيْفَ عَرَفْتَ كُلَّ
ذَلِكَ ، دُونَ أَنْ تُشَاهِدِيهِ ؟ »

أَجَابَتْهُ نَوْرُ الْعُيُونِ : « لَقَدْ سَمِعْتُهُمْ حِينَ قُدُومِهِمْ ، يَا مُوَلَايَ
الْأَمِيرَ ، وَأَنَا أَسْتَطِيعُ التَّقَاطُفَ الْأَصْوَاتِ وَتَمْيِيزَهَا مَهْمَا خَفَّتْ ؛
فَأَقْدَامُ الْجِيَادِ مَهْمَا رُبِطَتْ بِالْقُمَاشِ يَكُنْ لَهَا فَوْقَ الْأَرْضِ وَقَعٌ .
وَأَقْوَاهُ الْجِيَادِ مَهْمَا كَمُمَتْ يَكُنْ لِنَفْسِهَا صَوْتُ خَاصٍّ وَرَائِحَةٌ
مُمَيِّزَةٌ . وَالْأَسْلِحَةُ مَهْمَا أَخْفِيَتْ بَيْنَ طَيَّاتِ الْمَلَابِسِ يَكُنْ
لَاَحْتِكَاكِهَا بِالْقُمَاشِ رَيْنٌ . وَقَدْ عَرَفْتُ غَرَضَهُمْ مِنْ خِلَالِ

الْجَمِيلِ وَعَيْنَيْهَا الْخَضِرَاوَيْنِ ، وَسَأَلَهَا مُتَعَجِّبًا : « أَصَحِّحَ أَنَّكَ لَا
تُبْصِرِينَ آيَتَهَا الْفَتَاةَ ، رَغْمَ سِحْرِ عَيْنَيْكَ اللَّتَيْنِ لَا مَثِيلَ لِرُوعَتِهِمَا ؟ »
أَحْنَتْ نَوْرَ الْعُيُونِ رَأْسَهَا إِجْلَالًا ، وَقَالَتْ : « مُوَلَايَ الْأَمِيرَ ، إِنَّهَا
إِرَادَةُ اللَّهِ الَّذِي لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ ؛ فَلَا تَتَعَجَّبْ . فَفِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ ،
تُوَاجِهُنَا أُمُورٌ نَعْيَا عَنْ إِدْرَاكِ الْحِكْمَةِ فِي قَضَاءِ اللَّهِ فِيهَا . »
سَأَلَهَا الْأَمِيرُ : « وَكَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّي الْأَمِيرُ دُونَ أَنْ تَرَيْنِي أَوْ
يُخْبِرَكَ بِذَلِكَ إِنْسَانٌ ؟ »

أَجَابَتْهُ نَوْرُ الْعُيُونِ : « إِنَّ صَوْتَكَ ، يَا سَيِّدِي ، يَشِي بِأَنَّكَ الْأَمِيرُ ،
وَأَيْضًا فَإِنَّكَ حِينَ تَحَدَّثْتَ صَمَتَ الْجَمِيعِ ، وَالنَّاسُ لَا يَصْمَتُونَ
احْتِرَامًا إِلَّا عِنْدَمَا يَتَحَدَّثُ الْأَمْرَاءُ وَالْعُظَمَاءُ . » فَتَعَجَّبَ الْأَمِيرُ مِنْ
حِدَّةِ ذِكَاةِ نَوْرِ الْعُيُونِ وَدَقَّةِ مُلَاحَظَتِهَا .

أَضَافَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ فِي اضْطِرَابٍ : « مُوَلَايَ الْأَمِيرَ ، إِنَّ ثَمَّةَ
خَطَرًا عَظِيمًا يَتَرَبَّصُ بِكَ أَسْفَلَ التَّلِّ ؛ فَأَعْدَاءُ الْبِلَادِ يُحَاصِرُونَ
الْمَكَانَ وَهُمْ مُدْجَجُونَ بِالسَّلَاحِ ، وَيَعْتَزِّمُونَ قَتْلَكَ وَكُلَّ عُظَمَاءِ
الدَّوْلَةِ وَفُرْسَانِهَا ، مَتَى انْتَهَى الْحَفْلُ وَهُمْ الْجَمِيعُ بِالْانْصِرَافِ . »

سَأَلَهَا الْأَمِيرُ بِدَهْشَةٍ : « هَلْ تَقُولِينَ الْأَعْدَاءَ ؟ وَلَكِنِّي قَضَيْتُ
عَلَى أَعْدَاءِ الْبِلَادِ ، وَبَدَّدْتُ شَمْلَهُمْ ، وَانْتَصَرْتُ عَلَيْهِمْ انْتِصَارًا

وَهَتَفَ فِي قَائِدِ فُرْسَانِهِ : « أَيُّهَا الْقَائِدُ ، لِنَقْطَعِ الشُّكَّ بِالْيَقِينِ ،
وَلِنُلْقِ نَظْرَةً فَاحِصَةً إِلَى أَسْفَلِ التَّلِّ . فَمَهْمَا بَالَعَ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ
فِي حَدَرِهِمْ وَتَخَفَتَهُمْ ، فَلَا بُدَّ أَنَّ النُّظْرَةَ الْمُتَفَحِّصَةَ سَتَكْشِفُهُمْ وَتَبَيِّنُ
مَقْصِدَهُمْ . »

حَتَّى الْقَائِدُ رَأَسَهُ ، وَأَسْرَعَ لِنَتْفِيدِ مَا أَمَرَهُ بِهِ الْأَمِيرُ ، ثُمَّ عَادَ
مُهْرُولًا وَقَدْ ارْتَسَمَ الْفَزَعُ عَلَى وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ : « إِنَّ الْأَمْرَ كَمَا
قَالَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ فَهُنَاكَ جَيْشٌ جَرَّارٌ مِنَ الْأَعْدَاءِ مُتَشَحِّحٌ
بِالسَّوَادِ ، وَيَحِيطُ بِالتَّلِّ مِنَ الْأَمَامِ ، وَيَسْتَحِيلُ مُغَادَرَةَ الْقَصْرِ أَوْ
هُبُوطَ التَّلِّ دُونَ مُلَاقَاتِهِ . وَلَكِنَّا سِوَى عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ الْجُنُودِ
وَالْفُرْسَانِ ، لَا يَزِيدُ عَلَى الْخَمْسِينَ ، وَبِالْقَطْعِ لَنْ نَضْمَدَ أَمَامَ كَثْرَةِ
الْأَعْدَاءِ وَسِلَاحِهِمْ إِذَا مَا هَاجَمُونَا بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَقْلِ . إِنَّ الْأَمْرَ جِدُّ
سَيِّئٌ يَا مَوْلَايَ ، وَلَكِنْ يُمْكِنُنَا إِبْلَاغُ الْجَيْشِ حَتَّى يَهْبُ إِلَى نَجْدَتِنَا ؛
لَأَنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الْقَصْرِ . وَأَخْشَى أَنْ يُبَاغِتَنَا الْأَعْدَاءُ وَيَنْقُضُوا عَلَيْنَا قَبْلَ
وُصُولِ الْإِمْدَادَاتِ إِلَيْنَا . »

وَلَمَّا سَمِعَ الْمَدْعُودُونَ وَالْمَدْعُوَاتُ حَدِيثَ قَائِدِ الْحَرَسِ ، صَرَخُوا
فَزَعِينَ وَسَادَ الْمَكَانَ اضْطِرَابٌ عَظِيمٌ وَهَرَجٌ وَمَرَجٌ . وَوَقَفَ الْأَمِيرُ
صَامِتًا يُفَكِّرُ فِي الْخَطَرِ الْمَحْدِقِ بِهِ وَضُيُوفِهِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ مَوْقِفَهُ صَعَبٌ
لِلْغَايَةِ ؛ فَمَهْمَا كَانَتْ شَجَاعَتُهُ وَجَرَّاءُ جُنُودِهِ ، فَإِنَّ فُرْسَانَهُ قَلِيلُو

هَتَفَ الْأَمِيرُ بِذُهُولٍ : « هَذَا عَجِيبٌ ! عَجِيبٌ جِدًّا ! لَمْ أَسْمَعْ
عَنْ إِنْسَانٍ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الْمَقْدِرَةِ الْعَظِيمَةِ . كَيْفَ اسْتَطَاعَ هَؤُلَاءِ
الْأَعْدَاءُ التَّخْفِيَّ عَنْ عُيُونِ جُنُودِ وَفُرْسَانِ الْحُدُودِ وَنَقَاطِ التَّفْتِيشِ ،
وَأَمَكْنَ لِفَتَاةٍ لَا تُبْصِرُ أَنْ تَرَاهُمْ وَتَشْعُرَ بِهِمْ ؟ »

صَاحَتِ الْأَمِيرَةُ ذَاتُ عِقْدِ اللُّؤْلُؤِ الْأَسْوَدِ مُغْتَاطَةً : « إِنَّهَا فَتَاةٌ
كَاذِبَةٌ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُهَا ؟ إِنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَشْغَلَنَا بِقِصَّةِ
مُخْتَلَقَةٍ ؛ حَتَّى تُفْسِدَ حَقْلَنَا ، فَهِيَ لَيْسَتْ سِوَى فَتَاةٍ عَمِيَاءَ بَائِسَةٍ ،
لَا يُمْكِنُهَا أَنْ تُحِسَّ وَتَشْعُرَ بِمَا لَمْ يَرَهُ وَيَشْعُرَ بِهِ الْمُبْصِرُونَ . »

وَصَدَّقَ بَقِيَّةُ الْحَاضِرِينَ وَالْحَاضِرَاتِ عَلَى كَلَامِهَا بِقَوْلِهِمْ :
« نَعَمْ ، نَعَمْ . ضَعُهَا فِي السَّجْنِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ . إِنَّهَا تَبْدُو كَاذِبَةً .
كَيْفَ يُمْكِنُ لِعَمِيَاءَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلُ هَذِهِ الْمَقْدِرَةِ الَّتِي لَا يَمْلِكُهَا
الْمُبْصِرُونَ ؟ »

تَرَدَّدَ الْأَمِيرُ لِلْحِظَّةِ ، وَنَظَرَ إِلَى نُورِ الْعُيُونِ مُتَشَكِّكًا ، فَرَأَى فِي
عَيْنَيْهَا الْجَمِيلَتَيْنِ الصَّفَاءَ وَالنَّقَاءَ ، فَرَدَّدَ فِي نَفْسِهِ : « هَاتَانِ عَيْنَانِ
لَا يُمْكِنُ لِصَاحِبَتَيْهِمَا الْكَذِبُ أَبَدًا ؛ فَالْعَيْنُ مِرَآةٌ لِنَفْسِ صَاحِبِهَا ،
يَنْعَكِسُ فِيهَا الْخَيْرُ كَمَا يَبِينُ فِيهَا الشَّرُّ . »

الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ ، وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا مُوَاجَهَةَ جَيْشِ جَرَّارٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ ،
قِوَامُهُ أَلْفُ رَجُلٍ ، أَوْ التَّغْلِبَ عَلَيْهِمْ .

وَتَعَالَى صِرَاحُ وَعَوِيلُ الْأَمِيرَاتِ الْحَسَنَاتِ ، فَصَاحَ الْأَمِيرُ
يَأْمُرُهُنَّ بِالضَّمَّتِ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى نَوْرِ الْعُيُونِ وَكَانَتْ مُنْتَصِبَةً فِي
شَجَاعَةٍ ، لَمْ يَتَطَرَّقِ الْخَوْفُ إِلَى قَلْبِهَا ، وَقَالَ لَهَا : « أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ
الْحَكِيمَةُ الذَّكِيَّةُ ، قَدْ تَكُونُ نَجَاتَنَا عَلَى يَدَيْكَ ؛ فَأَخْبِرِينِي كَيْفَ
اسْتَطَعْتَ دُخُولَ الْقَصْرِ وَالْخُرُوجَ مِنْهُ دُونَ أَنْ يَلْحَظَكَ الْأَعْدَاءُ أَوْ
يَشْعُرُوا بِكَ ، رَغْمَ مُحَاصِرَتِهِمْ لِمَكَانِ الصُّعُودِ وَالْهَبُوطِ فِي التَّلِّ
مِنَ الْأَمَامِ ؟ »

أَجَابَتْهُ نَوْرُ الْعُيُونِ : « لَقَدْ تَسَلَّلْتُ إِلَى الْقَصْرِ مِنْ خَلْفِ التَّلِّ ،
خِلَالَ سِرْدَابٍ سِرِّيٍّ يَوْصِلُ إِلَى نَفَقٍ فِي مُنْتَصَفِ التَّلِّ ، وَهُوَ مَكَانٌ
لَمْ يُحَاصِرْهُ الْأَعْدَاءُ لِظَنِّهِمْ اسْتِحَالَةَ أَنْ يَرْتَقِيَهُ إِنْسَانٌ نَظَرًا لِمُصْعَوِيَّتِهِ
وَعَوْرَتِهِ وَصُخُورِهِ الْحَادَّةِ الْمَلْسَاءِ ؛ فَمِنْ زَلَّتْ قَدَمَاهُ مِنْ فَوْقِهِ هَوَى
لِأَسْفَلِ ، وَارْتَطَمَ بِالصُّخُورِ ، وَلَقِيَ مَضْرَعَهُ فِي الْحَالِ . »

دَهَشَ الْأَمِيرُ وَسَأَلَ نَوْرَ الْعُيُونِ : « إِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِمِثْلِ هَذِهِ
الْخَطُورَةِ ، فَكَيْفَ أُمَكَّنَكَ صُعُودَ ذَلِكَ الْجُزْءِ مِنَ التَّلِّ وَارْتِقَاؤَهُ ،
وَأَنْتِ لَا تَرَيْنَ حَتَّى مَوْطِئَ قَدَمَيْكِ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « مَنْ كَانَ مِثْلِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، وَجَبَ عَلَيْهِ الْاعْتِمَادُ عَلَى
حَوَاسِهِ الْأُخْرَى ؛ فَالْبَصَرُ لَيْسَ الْحَاسَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي مَنَحَهَا اللَّهُ
لِلْإِنْسَانِ ؛ لِيَعْتَمِدَ عَلَيْهَا فِي تَدْبِيرِ شُؤْنِهِ وَحَيَاتِهِ . فَتَمَّةُ حَوَاسٍ أُخْرَى
يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَوِّضَ بِهَا الْحَاسَةَ الْمَفْقُودَةَ لَدَيْهِ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا
يَشْعُرُ بِأَيِّ نَقْصٍ . »

شَرَدَ الْأَمِيرُ بِفِكْرِهِ هُنِيهَةً ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْحَاضِرِينَ قَائِلًا :
« سَأُغَادِرُ الْقَصْرَ مِنْ خِلَالَ النَّفَقِ وَالسَّرْدَابِ ، ثُمَّ أَهْبِطُ التَّلَّ مِنْ
الْخَلْفِ مَهْمَا كَانَ طَرِيقُ الْهَبُوطِ خَطِرًا أَوْ وَعْرًا ، وَسَأَتَّجِهَ رَأْسًا إِلَى
مَقَرِّ جَيْشِي وَأَسْتَدْعِيهِ عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ لِنِزَالِ الْأَعْدَاءِ ، قَبْلَ أَنْ
يُفَكِّرُوا فِي صُعُودِ التَّلِّ . وَعَلَيْكُمْ جَمِيعًا التَّحَلِّيُ بِالصَّبْرِ وَالْهَدْوِ
لِحِينَ وَصُولِ النُّجْدَةِ . »

وَالْتَفَتَ إِلَى نَوْرِ الْعُيُونِ قَائِلًا : « وَالْآنَ دَعِينَا نُغَادِرِ الْمَكَانَ
بِطَرِيقَتِكَ الْخَاصَّةِ أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ الشُّجَاعَةُ . هَيَّا فَلَا وَقْتُ لَدَيْنَا . »

أَسْرَعَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ نَحْوَ مَدْخَلِ السَّرْدَابِ وَالْأَمِيرُ خَلَفَهَا ، وَمِنْ
وَرَائِهِمَا الْكَلْبُ مُخْلِصٌ ، وَعَبَّرَ الثَّلَاثَةُ السَّرْدَابَ وَالنَّفَقَ زَاحِفِينَ ،
حَتَّى وَصَلُوا إِلَى فُتْحَةِ النَّفَقِ . وَانْكَشَفَ لِعَيْنِ الْأَمِيرِ جُنُودُ الْأَعْدَاءِ
عَلَى ظُهُورِ جِيَادِهِمْ أَسْفَلَ التَّلِّ ، وَهُمْ مُتَشِحُونَ بِالسَّوَادِ ، انْتِظَارًا

لِلْحِظَّةِ الْهُجُومِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَفْلِ .

وَحَثُّ الْأَمِيرِ نَوْرَ الْعُيُونِ قَائِلًا : « لِنُسْرِعْ بِالْهُبُوطِ لاسْتِدْعَاءِ الْجَيْشِ ؛ فَلَيْسَ لَدَيْنَا مُتَسَّعٌ مِنَ الْوَقْتِ . »

قَالَتْ : « اتَّبِعْنِي ، يَا مَوْلَايَ الْأَمِيرَ ، وَكُنْ حَذِرًا فِي هُبُوطِكَ . »

وَأَخَذَتْ نَوْرَ الْعُيُونِ تَهَيَّطُ التَّلَّ فِي حَذَرٍ وَثِقَةٍ ، رَغْمَ مَشَقَّةِ الْهُبُوطِ وَحِدَّةِ الصُّخُورِ ، وَالْأَمِيرُ يَتَّبِعُهَا مُتَعَجِّبًا وَهُوَ يَرَاهَا تَهَيَّطُ أَمْهَرَ مِنْ أَيِّ مُبْصِرٍ .

وَرَدَّدَ فِي نَفْسِهِ : « يَا لَهَا مِنْ فِتَاةٍ شُجَاعَةٍ حَكِيمَةٍ ! »

وَفَجْأَةً صَاحَتْ نَوْرَ الْعُيُونِ فِي الْأَمِيرِ : « حَازِرٌ أَيْهَا الْأَمِيرُ ، وَانْظُرْ أَيْنَ تَضَعُ قَدَمَيْكَ . »

نَظَرَ الْأَمِيرُ إِلَى مَوْطِئِ قَدَمَيْهِ فَرَأَى هُوَّةَ سَحِيقَةٍ ، وَعَرَفَ أَنَّهُ لَوْلَا تَحْذِيرُ نَوْرِ الْعُيُونِ لَسَقَطَ فِي الْهُوَّةِ دُونَ أَنْ يَلْحَظَهَا . وَنَظَرَ دَهْشًا إِلَى نَوْرِ الْعُيُونِ ، وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ كَيْفَ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ يَكَادُ يَسْقُطُ فِي الْهُوَّةِ دُونَ أَنْ تَرَاهُ ، فَأَجَابَتْهُ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ بِسُؤَالِهِ قَائِلَةً : « عِنْدَمَا سَمِعْتُ صَوْتَ خُطَوَاتِكَ تُسْرِعُ خَلْفِي ، أَدْرَكْتُ أَنَّكَ فَقَدْتَ حَذَرَكَ ، وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ هُوَّةَ عَمِيقَةٍ ، يَسْقُطُ فِيهَا مَنْ لَا يَنْتَبِهُ إِلَيْهَا ؛ لِذَا فَقَدْ حَذَرْتُكَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ . وَفُطِنْتُ إِلَى

أَنَّكَ سَتَدَّهَشُ مِنْ تَحْذِيرِي إِيَّاكَ ، فَأَجَبْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَنْطِقَ بِسُؤَالِكَ . »

ازْدَادَ الْإِعْجَابُ فِي عَيْنِي الْأَمِيرِ ، وَقَالَ لِنَوْرِ الْعُيُونِ : « إِنَّكَ فِتَاةٌ ذَكِيَّةٌ ، شَدِيدَةُ الْإِدْرَاكِ . وَإِنْ كَانَ اللَّهُ حَرَمَكَ مِنْ نِعْمَةِ الْبَصَرِ ، فَقَدْ أُنَارَ قَلْبُكَ بِالْمَعْرِفَةِ وَالذِّكَاةِ وَالْحِكْمَةِ ، عَوَضًا عَنْ عَيْنَيْكَ . »

سَعِدَتْ نَوْرَ الْعُيُونِ بِمَدِيحِ الْأَمِيرِ لَهَا ، وَأُسْرَعَتْ هَابِطَةً وَالْأَمِيرُ خَلَفَهَا ، حَتَّى بَلَغَا أَسْفَلَ التَّلِّ وَمَعَهُمَا الْكَلْبُ مُخْلِصٌ ، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمُ الْأَعْدَاءُ ؛ لِانْتِشَارِ الظَّلَامِ بِالْمَكَانِ .

وَهَمَسَ الْأَمِيرُ لِنَوْرِ الْعُيُونِ قَائِلًا : « سَأَسْتَوَلِي عَلَى أَحَدِ خِيُولِ الْأَعْدَاءِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِي أَحَدٌ ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى جَيْشِي فَأَسْتَدْعِيهِ فِي الْحَالِ لِحِصَارِ الْأَعْدَاءِ وَأَسْرِهُمْ . »

وَلَكِنْ تَنَاهَى إِلَى سَمْعِ الْأَمِيرِ فِي اللَّحْظَةِ نَفْسُهَا صَوْتُ زَعِيمِ الْأَعْدَاءِ وَهُوَ يَقُولُ لِحُجُودِهِ : « لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِهُجُومِنَا ؛ إِذْ يَبْدُو أَنَّ حَفْلَ الْأَمِيرِ قَدْ انْتَهَى ؛ فَقَدْ خَفَّتْ حِدَّةُ الضُّجَّةِ فِي الْقَصْرِ . فَدَعُونَا نُسْرِعْ بِارْتِقَاءِ التَّلِّ وَالْهُجُومِ عَلَى الْأَمِيرِ وَمَنْ مَعَهُ فَنُبِيدَهُمْ جَمِيعًا ، وَبِذَلِكَ يَسْهُلُ عَلَيْنَا احْتِلَالُ الْبِلَادِ . »

شَحَبَ وَجْهَ الْأَمِيرِ وَقَالَ : « يَبْدُو أَنَّنَا تَأَخَّرْنَا . سَيَهَاجِمُ الْأَعْدَاءُ الْقَصْرَ وَيَقْتُلُونَ مَنْ فِيهِ ، وَلَكِنِّي لَنْ أَسْمَحَ بِذَلِكَ أَبَدًا . سَأَقَاتِلُهُمْ

وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَكَادَ يَنْدَفِعُ لِمُلَاقَاتِهِمْ ، لَوْلَا أَنْ أَمْسَكَتْ نَوْرَ
الْعُيُونِ بِذِرَاعِهِ وَهِيَ تَقُولُ نَاصِحَةً : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّكَ بِذَلِكَ تُتْلَفِي
بِنَفْسِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ . فَمَهْمَا كَانَتْ شَجَاعَتُكَ وَقُوَّتُكَ ، فَسَوْفَ
يَتَغَلَّبُ عَلَيْكَ الْأَعْدَاءُ ؛ فَالكَثْرَةُ تَغْلِبُ الشَّجَاعَةَ ، وَالْإِنْسَانُ الْحَكِيمُ
لَا يَلْجَأُ لِلْقُوَّةِ إِنْ كَانَ فِيهَا هَلَاكُهُ ، بَلْ يَسْتَعِينُ بِالْحِيلَةِ لَوْ كَانَ
فِيهَا خَلَاصُهُ وَنَجَاتُهُ . إِنْ لَدَيَّ حِيلَةٌ لَعَلَّهَا تَكُونُ سَدِيدَةً ، وَقَدْ يَكُونُ
فِيهَا نَجَاتُنَا جَمِيعًا ، وَإِبَادَةُ الْأَعْدَاءِ . »

سَأَلَهَا الْأَمِيرُ بِاهْتِمَامٍ : « مَا هِيَ تِلْكَ الْحِيلَةُ ؟ »

أَجَابَتْهُ نَوْرُ الْعُيُونِ : « بِالْقُرْبِ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ تَوْجَدُ أَرْضُ الرَّمَالِ
الْمُتَحَرِّكَةِ ، وَهِيَ أَرْضٌ رَهِيبةٌ تَبْتَلَعُ أَيَّ كَائِنٍ يَسْقُطُ فِيهَا فَلَا يَخْرُجُ
مِنْهَا حَيًّا . فَإِذَا أُمَكَّنَّا خَدِيعَةَ الْأَعْدَاءِ وَدَفَعْنَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ ،
سَقَطُوا فِي الرَّمَالِ الْمُتَحَرِّكَةِ وَابْتَلَعَتْهُمْ وَمَاتُوا جَمِيعًا فِي الْحَالِ ؛
فَتَنْجُو الْبِلَادُ مِنْ شَرِّهِمْ إِلَى الْأَبَدِ . »

هَتَفَ الْأَمِيرُ بِإِعْجَابٍ : « يَا لَهَا مِنْ فِكْرَةٍ رَائِعَةٍ ! وَلَكِنْ كَيْفَ
سَنَدْفَعُ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ لِلذَّهَابِ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ ؟ »

قَالَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ : « لِنَحْصِلُ أَوَّلًا عَلَى جَوَادٍ ، وَسَأُخْبِرُكَ بِالْبَاقِي

تَسَلَّلَ الْأَمِيرُ إِلَى جِيَادِ الْأَعْدَاءِ ، وَانْتَقَى جَوَادًا قَوِيًّا فَاِمْتَطَاهُ ،
وَأَرْدَفَ نَوْرَ الْعُيُونِ خَلْفَهُ ، ثُمَّ اسْتَدَارَ نَحْوَ الْأَعْدَاءِ وَصَاحَ بِصَوْتِ
جَهَوْرِيٍّ فِي شَجَاعَةٍ : « إِنِّي الْأَمِيرُ الَّذِي جِئْتُمْ سَعِيًّا لِقَتْلِهِ .
فَلْيَسْرِعْ خَلْفِي مَنْ يُرِيدُ الْقَبْضَ عَلَيَّ وَأُسْرِي . »

الْتَفَتَ الْأَعْدَاءُ ذَاهِلِينَ عِنْدَمَا رَأَوْا الْأَمِيرَ فَوْقَ صَهْوَةِ الْجَوَادِ ،
وَأَسْرَعُوا بِامْتِطَاءِ جِيَادِهِمْ ، وَمُطَارَدَةِ الْأَمِيرِ .

انْطَلَقَ الْأَمِيرُ بِجَوَادِهِ انْطِلَاقَةَ السَّهْمِ ، وَنَوْرُ الْعُيُونِ خَلْفَهُ ،
وَالْكَلْبُ مُخْلِصٌ يَنْبَحُ وَيَعْدُو فِي أَثَرِهِمَا . وَأَشَارَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ نَاحِيَةَ
الشَّرْقِ بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفَتْ عَلَيْهِ مِنْ اتِّجَاهِ هُبُوبِ الرِّيحِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ
مِنَ الْعَامِ ، وَقَالَتْ لِلْأَمِيرِ : « قَدْ الْجَوَادُ فِي هَذَا الْاتِّجَاهِ . »

زَادَ الْأَمِيرُ مِنْ سُرْعَةِ الْجَوَادِ فِي الْاتِّجَاهِ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ نَوْرُ
الْعُيُونِ ، وَخَيُولُ الْأَعْدَاءِ تُطَارِدُهُ . وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ جَوَادُ الْأَمِيرِ إِلَى
أَرْضِ الرَّمَالِ الْمُتَحَرِّكَةِ ، كَانَتْ نَوْرُ الْعُيُونِ قَدْ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُقَدِّرَ
الْوَقْتَ اللَّازِمَ لِذَلِكَ ، ثُمَّ صَاحَتْ فِي الْأَمِيرِ : « لِنَقْضِ الْآنَ مِنْ فَوْقِ
الْجَوَادِ ؛ فَقَدْ صِرْنَا عَلَى مَشَارِفِ أَرْضِ الرَّمَالِ الْمُتَحَرِّكَةِ . »

اِحْتَوَى الْأَمِيرُ نَوْرَ الْعُيُونِ بِذِرَاعِيهِ لِيَحْمِيَهَا مِنَ الْإِرْطَامِ ، ثُمَّ

فَقَزَّ بِهَا مِنْ فَوْقِ الْجَوَادِ ، فَسَقَطَ الْاِثْنَانِ فَوْقَ الْأَرْضِ وَتَدَحَّرَجَا
مُبْتَعِدَيْنِ ، وَاخْتَفَيَا عَنِ الْأَنْظَارِ خَلْفَ صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ دُونَ أَنْ يُصَابَا
بِسُوءٍ ، سِوَى بَعْضِ الْخُدُوشِ .

وَوَظَلَ جَوَادُهُمَا مُنْدَفِعًا فِي اتِّجَاهِ أَرْضِ الرَّمَالِ الْمُتَحَرِّكَةِ ، وَخَيُولُ
الْأَعْدَاءِ تَرَكُّضُ خَلْفَهُ ، دُونَ أَنْ يَكْتَشِفُوا شَيْئًا مِمَّا حَدَثَ لِلْأَمِيرِ
وَرَفِيقَتِهِ بِسَبَبِ الظَّلَامِ .

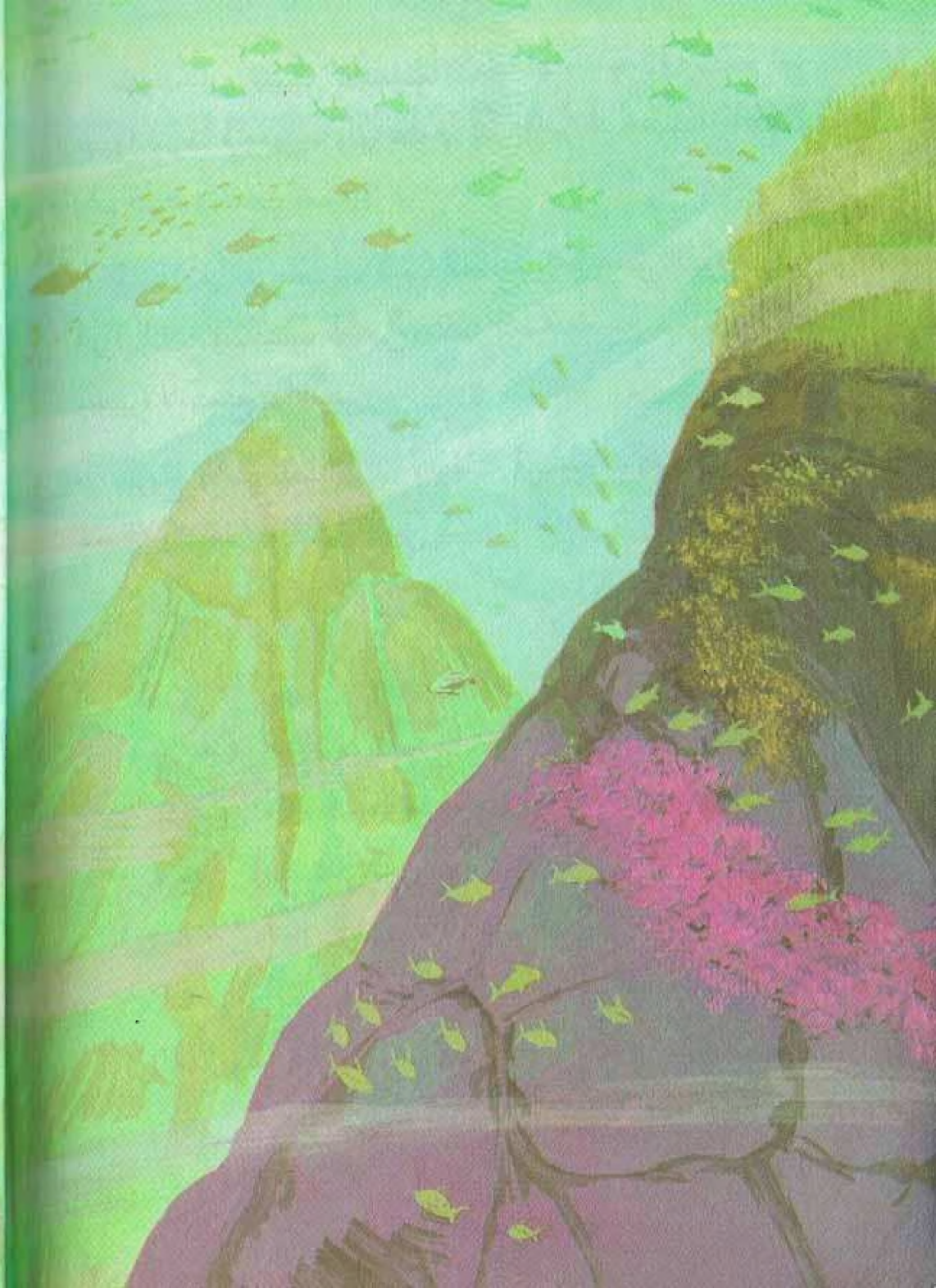
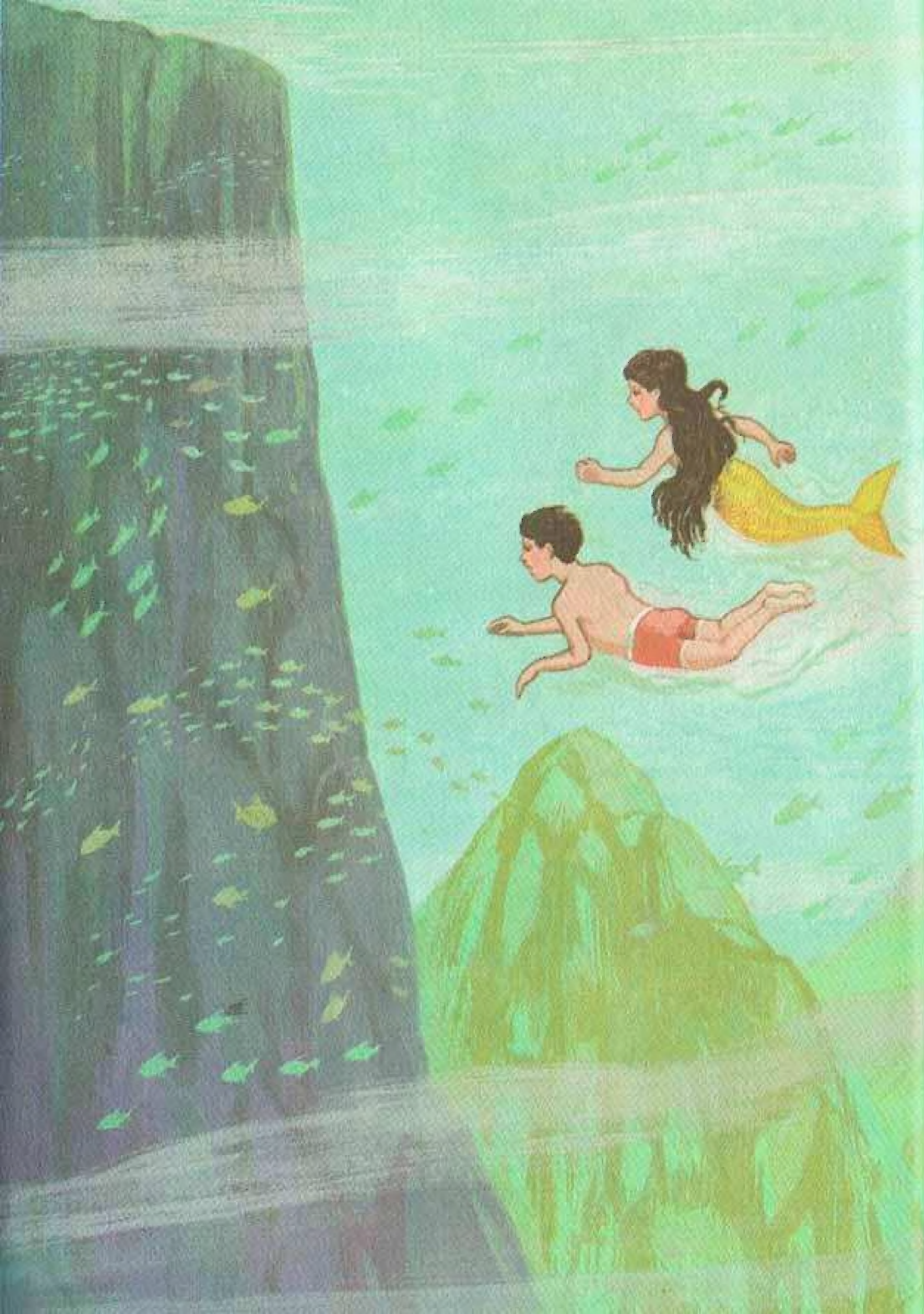
وَأَنْدَفَعَ جَوَادُ الْأَمِيرِ وَخَيُولُ الْأَعْدَاءِ تُطَارِدُهُ نَحْوَ أَرْضِ الرَّمَالِ
الْمُتَحَرِّكَةِ ، دُونَ أَنْ يَنْتَبِهُوا إِلَى حَقِيقَتِهَا ، فَعَاصَوْا فِيهَا جَمِيعًا وَلَمْ
يَتِمَكَّنُوا مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا ، وَمَاتُوا فِي الْحَالِ .

ابْتَهَجَ الْأَمِيرُ بِمَا حَدَثَ ، وَقَالَ لِنُورِ الْعُيُونِ : « إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ
أَوْفِكَ حَقِّكَ ، أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ الشُّجَاعَةُ الذَّكِيَّةُ ، مِنَ الشُّكْرِ وَالْعِرْفَانِ .
لَقَدْ كُنْتُ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ فِتَاةٍ مُبْصِرَةٍ بِحِكْمَتِكَ وَقُوَّةِ إِدْرَاكِكَ ،
وَأَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ بِشَجَاعَتِكَ وَحُسْنِ تَصَرُّفِكَ . وَلَكِنْ أَجِدُ فِي
هَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ فِتَاةً خَيْرًا مِنْكَ لِتَكُونَ مُسْتَشَارِي الْخَاصِّ ، الَّذِي
أَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَآتِقُ بِحِكْمَتِهِ وَذَكَائِهِ ، وَأَسْتَشِيرُهُ فِي كُلِّ أُمُورِ الْبِلَادِ
الَّتِي تَتَطَلَّبُ حِكْمَةً وَعَقْلًا رَاجِحًا وَبَصِيرَةً نَافِذَةً . وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ لَنْ
أَجِدَ فِتَاةً أَفْضَلَ مِنْكَ لِتَكُونَ زَوْجَةً لِي . »

سَعِدَتْ نُورُ الْعُيُونِ بِكَلِمَاتِ الْأَمِيرِ لَهَا ، وَتَرَقَّرَقَ الدَّمْعُ فِي
عَيْنَيْهَا لِفَرَطِ فَرَحِهَا ، وَلَمْ تُصَدِّقْ أَنَّ الْأَمِيرَ قَدْ اخْتَارَهَا زَوْجَةً لَهُ
رَغْمَ فَقْرِهَا وَكَفَافِ بَصَرِهَا .

وَعَادَ الْأَمِيرُ إِلَى قَصْرِهِ ، فَأَخْبَرَ الْجَمِيعَ بِاخْتِيَارِهِ نُورَ الْعُيُونِ لِتَكُونَ
أَمِيرَةَ الْبِلَادِ وَمُسْتَشَارَهُ الْخَاصِّ ؛ لِمَا تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ ذَكَاءٍ وَحِكْمَةٍ
وَبَصِيرَةٍ لَا يَتَمَتَّعُ بِهَا الْمُبْصِرُونَ .

وَتَزَوَّجَ الْأَمِيرُ بِنُورِ الْعُيُونِ ، وَعَاشَا فِي سَعَادَةٍ وَهَنَاءَةٍ ، وَعَاشَ
مَعَهُمَا وَالِدَاهُمَا ، وَكَلَّبَهَا الْأَمِينُ الشُّجَاعُ مُخْلِصٌ .



المغامرات المثيرة

- ١- مغامرة في الأدغال
- ٢ - مغامرة في الفضاء
- ٣ - مغامرة أسيرين
- ٤ - مغامرة في الجزيرة الخضراء
- ٥ - مغامرة على الشاطئ
- ٦ - الجاسوس الطائر
- ٧ - لصووس الطريق
- ٨ - حمد الغواص الشجاع
- ٩ - اللصان النبان
- ١٠ - مطاردة لصووس السيارات
- ١١ - مغامرات السندباد البحري
- ١٢ - لعبة خطرة
- ١٣ - الحشرة الذهبية وقصص أخرى
- ١٤ - اللؤلؤة السوداء
- ١٥ - سر الجزيرة
- ١٦ - مغامرة في النهر
- ١٧ - شبح الحديقة وقصص أخرى
- ١٨ - سر الدرجات التسع والثلاثين
- ١٩ - الجاسوس وقصص أخرى
- ٢٠ - مغامرات توم سوير
- ٢١ - المختطف
- ٢٢ - الكمبيوتر الرهيب
- ٢٣ - الأميرة المتوحشة
- ٢٤ - موسيقى الليل



مَكْتَبَةُ لِبْنَان

سَاحَةِ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَيْرُوتِ

رقم الكمبيوتر 198221

رقم الكمبيوتر